مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية، المجلد 28، العدد 5: 2020.
Journal of University of Babylon for Humanities, Vol.(28), No.(5): 2020.

صورة الإنسان الناقص في شعر ابن الحجاج النيلي البغدادي (ت391هـ)

نورس إبراهيم عبد الهادي

قسم اللغة العربية/ جامعة كربلاء/ كلية العلوم الإسلامية/العراق

Seagull.world@yahoo.com

معلومات البحث
تاريخ الاستلام : 25/ 6/ 2020
تاريخ قبول النشر: 16/7/ 2020
تاريخ النشر: 16 / 8/ 2020

المستخلص

كثيرة هي الدراسات التي اهتمت بدراسة صورة الآخر في التراث العربي، وقد حاولت في هذه الدراسة توسيع مفهوم الآخر، فهو ليس المختلف من ناحية العرق، والدين، والجنس، واللسان، بل هو الآخر المنفلت اجتماعيا، واخلاقيا، وثقافيا. وتطمح هذه الدراسة لصورة الآخر الناقص أن تكون نوعا من الحوار مع الذات، وسبر أغوارها، وتعريتها للكشف عن الممنوع والمرغوب في آن واحد داخل النفس البشرية.

يتحدد مفهوم الإنسان الناقص عبر استحضار نقيضه، الإنسان الكامل. فالنقص والكمال مفهومان متضادان لا يتحقق أحدهما إلا بوجود الآخر. وليس للإنسان الناقص ماهية ثابتة مكتملة ووجود تاريخي، بل يتخذ صورا مختلفة باختلاف المرجعيات التي ينطلق منها سواء أكانت دينية أم فلسفية أم صوفية أم بلاغية إلى غير ذلك. وفي ميدان الأدب قد يتخذ النقصان وجوها مختلفة، فالناقص قد يرتبط بمنزلة الإنسان الاجتماعية، كطبقة العامة، والعوام أصناف وأنواع؛ كالطفيليين والمكدين والمتحامقين والعيارين وغيرهم، وكل من يقوم بأفعال دنيئة؛ كالسرقة والتحيل والتطفيل والكدية، وبعضها الآخر يتعلق بملكات الإنسان الناقصة كالسخف والحمق والجنون. كما قد ينطلق النقصان من الجوانب العقلية متمثلة بالحمق والجنون، أو الناقص جسديا متمثلا بأصحاب العيوب والعاهات، بمعنى أن المؤسسة الأدبية اهتمت بالنقصان بشقيه الخُلقي والخِلقي.

ووقع اختيارنا على شخصية ابن الحجاج، ليمثل الإنسان الناقص لسببين: أولها؛ أن ابن الحجاج شخصية عجيبة جاءت على غير سابق مثال. وثانيهما: أن لشعره أهمية كبيرة، جمع الشاعر عبره شتى المساوئ والنواقص الإنسانية التي لم تحظ إلا بالنزر اليسير من الأبحاث. فظلَّ شعره مغمورا تقريبا، ولعلّ ذلك راجع إلى ما يحتويه هذا الشعر من خطاب يسمه الفحش، والإقذاع، والإغراق في فضح القبيح مما لا تستسيغه الذائقة المحافظة.

الكلمات الدالة: صورة، الإنسان، الناقص، شعر، ابن الحجاج، الشعر العباسي.

The Image of the Imperfect Human in the Poetry of Ibn Al-Hajjaj Al-Nayli Al-Baghdadi (died 391 AH)

Nawres Ibrahim Abdul Hadi

Department of Arabic Language/ Karbala University/
College of Islamic Sciences/ Iraq

Abstract

There are many studies that have been concerned with studying the image of the other in Arab heritage. I have tried in this study to expand the concept of the other, as it is not different in terms of race, religion, gender, and tongue, but is the other socially, morally, and culturally escaped. This study aspires to the image of the other imperfected to be a form of dialogue with the self, and probing its depths, and stripping them to reveal the forbidden and desired at the same time within the human psyche.

The concept of a deficient person is determined by evoking its opposite, the perfect person. Inferiority and perfection are two opposing concepts, one of which can be achieved only with the presence of the other. An incomplete human being does not have a fixed, complete, and historical existence, but rather takes different forms according to the different references that flow from it, whether they are religious, philosophical, mystical, rhetoric, etc. In the field of literature, deficiency may take different faces. The deficiency may be related to the social status of man, such as the general class, commoners and varieties, such as parasites, troublemakers, fools, calibers, and others, and

by University of Babylon is licensed under a Journal of University of Babylon for Humanities (JUBH)
Creative Commons Attribution 4.0 International License

everyone who performs sordid acts such as theft, fraud, parasitism, and kadia, and others related to incomplete human properties such as absurdity, foolishness and madness. The decrease may also start from the mental aspects represented by foolishness and insanity, or physically deficient represented by the owners of defects and impairments, meaning that the literary institution has been concerned with the decrease in both moral and moral aspects.

We have chosen the personality of Ibn Al-Hajjaj, to represent the imperfect man for two captains, the first of which is that Ibn Al-Hajjaj was a strange figure that came without precedent. The second is that his poetry is of great importance, through which the poet was able to collect various human deficiencies and shortcomings, which did not receive a small amount of research. His poetry remained almost overwhelmed, and perhaps this is due to the rhetoric that he calls obscenity, depression, and dumping in ugliness, which is not palatable to the conservative taste.

Key words: portrait, human, incomplete, poetry, Ibn al-Hajjaj , Abbasid poetry.

المقدمة

فقد أنتجت المنظومة الثقافية العربية على اختلاف مرجعياتها نصوصا تُمجّد الفضائل الإنسانية، في محاولة رسم أنموذج للإنسان الكامل، لهذا ركزت جهود الباحثين على الجانب الجدي، واحتفت بالشخصيات المهيبة التي تمثل القيم، والأخلاق وأهملت الجانب الهزلي الذي يحتضن النقصان بمختلف صنوفه. ومن البديهي في ضوء ذلك السعي نحو الكمال أن لا نرى في تاريخ العرب الفكري والثقافي -إلا ما ندر- من حاول أن يرسم ملامح لذلك الآخر، الإنسان الناقص، أو من يفخر بالنواقص، ويجاهر بارتكابها، ويحثُّ عليها؛ لأن الإنسان بطبيعته يخفي نواقصه ويتبرأ منها، ويظهر فقط ما هو إيجابي، كي يحظى بنظرة تقدير واحترام من المجتمع الذي يعيش فيه ويحتضه.

ومما لا شك فيه أن الدراسات التي اهتمت بدراسة صورة الآخر في التراث العربي كثيرة، وقد حاولت في هذه الدراسة توسيع مفهوم الآخر، فهو ليس المختلف من ناحية العرق، والدين، والجنس، واللسان، بل هو الآخر المنفلت اجتماعيا واخلاقيا وثقافيا. وتطمح هذه الدراسة لصورة الآخر الناقص أن تكون نوعا من الحوار مع الذات، وسبر أغوارها، وتعريتها للكشف عن الممنوع والمرغوب في آن واحد في النفس البشرية.

ووقع اختيارنا على شخصية ابن الحجاج، ليمثل الإنسان الناقص لسببين: أولها؛ أن ابن الحجاج شخصية عجيبة جاءت على غير سابق مثال. وثانيهما؛ أن لشعره أهمية كبيرة جمع الشاعر عبره شتى المساوئ والنواقص الإنسانية التي لم تحظ إلا بالنزر اليسير من الأبحاث. فظلَّ شعره مغمورا تقريبا، ولعلّ ذلك راجع إلى ما يحتويه هذا الشعر من خطاب يسمه الفحش، والإقذاع، والإغراق في فضح القبيح مما لا تستسيغه الذائقة المحافظة.

يعد ابن الحجاج من عجائب زمانه، فقد رسم النقص الإنساني في شعره وصوّره خير تصوير، من دون خوف أو وجل، وبطبيعة الحال فإن المتلقي لهذه النواقص قد يمجُّ شعره ويحتقره ويزدريه، لكن عليه أن يضع في الحسبان ان ما صوّره ابن الحجاج كان صادقا وواقعيا، فقد رسم أنموذجا للإنسان الناقص في العصر العباسي، وتحديدا القرن الرابع الهجري، مما سكتت عنه أقلام الشعراء والأدباء والمثقفين. وهو يمثل الإنسان في كل زمان ومكان.

إنّ هذا الأنموذج الناقص ليس بدعا من ابن الحجاج، بل هو صورة مختزلة للفرد أو الإنسان العربي في ذلك الوقت، وفي كل وقت، صورة لانقلاب المعايير والقيم، هو تاريخ للإنسان وتحولاته عبر العصور، بل هو تاريخ للا أخلاقيات التي تموج بها المجتمعات، لذلك يجب على قارئ هذا الشعر أن لا ينظر إليه نظرة ترفضه وتحتقره، فهو يكشف عوالم سحقية يخشى كثيرون الإفصاح عنها، فضلا عن تدوينه للعالم اللا أخلاقي الذي نعيش فيه ونرفض الاعتراف به. ولولا ابن الحجاج ما تمكّنا من معرفة مستوى الانحدار الذي طال

المنظومة القيمية في ذلك الوقت، فضلا عن أن قصائدة تلقي الضوء على جوانب من حياة بغداد، في زمانه، غالبا ما تم التستر عليها. ففي سخف ابن الحجاج كثير مما أهمله الذين درسوا الحقبة البويهية، ففيه معلومات عن عوالم المغنين، والراقصات، والعاهرات، والعجائز، وأجواء الحانات، وعن سلطة الحجّاب والبوابيّن، وعن الحياة الحميمية الخاصة للحكام والوزراء في ذلك الزمان، وحياتهم السرية.

وانقسمت هذه الدراسة على ثلاثة مباحث: الأول؛ بعنوان (صورة ابن الحجاج في المصادر القديمة) وجاء على شقين؛ الأول: صورة ابن الحجاج بوصفه شاعرا في المصادر القديمة، والثاني: صورته بوصفه إنسانا في تلك المدونات.

ودرست في المبحث الثاني عالم النقصان كما تمثله ابن الحجاج في شعره بوصفه عالما مثاليا تتهاوى فيه القيم والأخلاق عبر استقراء شعره الذي يبين فيه عالمه الناقص الذي جعله عالما يضاهي عالم المثل. في حين خصصنا المبحث الثالث بالتقصي عن لازمة النقصان الدائمة في شعره، وهي البذاءة. أما الخاتمة فبيّنا فيها أهم نتائج بحثنا عن عوالم الإنسان الناقص في شعر ابن الحجاج. وقد استعنا فيه بالمنهج الوصفي التحليلي.

ولا بد من الإشارة إلى أن شعر ابن الحجاج يعجُّ بالفحش والبذاءة، وقد حاولت قدر الإمكان توظيف نماذج شعرية قد لا تخدش ذائقة المتلقي وحيائه، وفي الوقت عينه تعكس هذه العوالم الناقصة التي كان هدف البحث تصويرها، والكشف عنها.

ومن الصعوبات التي واجهتنا في هذا البحث، قلة الدراسات التي تناولت الإنسان الناقص وتجلياته في الفكر والثقافة، إذ ركزت أغلبها على مفهوم الإنسان الكامل، وحاولت بلورة صورة راسخة لهذا الإنسان، تاركة ذلك الآخر الناقص في الجانب المعتم منها.

ختاما، يبقى الوجه الآخر للإنسان، ونعني به الآخر الناقص بحاجة إلى دراسة عميقة، فلا يمكننا أن نفهم ذواتنا بالسعي نحو الكمال فيها، بل بتتبع مكامن النقصان، ومعرفة أسبابه، فلا يتحقق الكمال إلا بمعرفة ما هو النقصان والاعتراف به بصفه هوية مغايرة تنخر عميقا في النفس البشرية، وأهوائها، ورغباتها المكبوتة المسكوت عنها، والمحرم الجهر بها. وينبغي أن لا يقتصر اهتمامنا على النماذج التي تمثل الأخلاق والفضائل؛ لأنّ الكمال لا يتحقق ما لم نستجلِ مكامن النقصان في ذواتنا.

التمهيد

مفهوم الإنسان الناقص في التراث العربي

يتحدد مفهوم الإنسان الناقص عبر استحضار نقيضه، الإنسان الكامل. فالنقص والكمال مفهومان متضادان لا يتحقق أحدهما إلا بوجود الآخر. وليس للإنسان الناقص ماهية ثابتة مكتملة ووجود تاريخي، بل يتخذ صورا مختلفة باختلاف المرجعيات التي ينطلق منها سواء أكانت دينية أم فلسفية أم صوفية أم بلاغية إلى غير ذلك.

لقد انتجت الثقافة، على اختلاف مرجعياتها، معاييرَ للإنسان الكامل وكل من خرج أو خالف تلك المعايير أضحى ناقصا. فلو رجعنا إلى القصص الإسلامي الديني نجد أن النبي آدم (ع) قد مثّل رمزا للإنسان الكامل، فهو أصل الوجود، والقداسة، والعلم إلى غير ذلك من رموز كماله. لكن مخالفته الأمر الإلهي وقربه من الشجرة المحرمة جعلته إنسانا ناقصا، ومن ثم تتابعت عوامل نقصانه[(1)].

ويتخذ النقصان منحى مغايراً في الخطاب الفلسفي اليوناني، متمثلا بفلسفة أرسطو التي جعلت من الفضيلة والرذيلة معيارا لنقص الإنسان أو كماله ووفق الطبقة الاجتماعية التي ينحدر منها، فالناقص هو إنسان

العامة، الذي لا ينتمي إلى طبقة النبلاء، وتكون أخلاقه دنيئة قبيحة تحمل على الهزء والضحك[2]. والناقص عند مترجمي أرسطو من الفلاسفة العرب هو المهجو، والمهجو من ألحقت به الصفات القبيحة والرذائل[3]. والأمر عينه فيما يتعلق بالتراث الصوفي والبلاغي[4].

وفي ميدان الأدب قد يتخذ النقصان وجوها مختلفة، لكنها في المجمل تندرج ضمن ثنائية خاصة/ عامة، فالخاصة أُختصت بالكمال، وقد أوتيت العلم والبيان والفضائل. أما العامة فقد سلبوا كل فضيلة، ولا حظّ لهم من الثقافة والبيان والعقل. فالناقص إذن مرتبط بمنزلة الإنسان الاجتماعية، هو العامي، والعوام أصناف وأنواع؛ كالطفيليين والمكدين والمتحامقين والعيارين وغيرهم، وكل من يقوم بأفعال دنيئة؛ كالسرقة والتحايل والتطفيل والكدية، وبعضها الآخر يتعلق بملكات الإنسان الناقصة؛ كالسخف والحمق والجنون. وقد ينطلق النقصان من الجوانب العقلية متمثلة بالحمق والجنون، أو الناقص جسديا متمثلا بأصحاب العيوب والعاهات، بمعنى أن المؤسسة الأدبية، اهتمت بالنقصان بشقيه الخلقي والخلقي[5].

وهكذا يتضح بشكل جلي أن النقصان هو: "صنع ثقافي تنتجه اللغة عن طريق جملة من العلامات التي يتأسس عليها كون خطابي معين... ولمّا كان كل خطاب خاضعا لقوتي الرغبة والسلطة أضحت صناعة النقصان مما تصنعه ثقافة ما في لحظة تاريخية معينة للمحافظة على أسسها الثابتة مفترضة أنها بها قد بلغت الكمال"[6].

إن الإنسان الناقص مدار بحثنا هذا –الذي مثّله ابن الحجاج في شعره– هو الناقص اجتماعيا، وأخلاقيا، وفنيا. فعلى الصعيد الاجتماعي مثّل ابن الحجاج أساليب العامة ولغتهم في شعره، والعامة طبقة هامشية يعتريها النقصان بمختلف صنوفه. أما النقصان الاخلاقي، فلأنه اتخذ من السخف والمجون مذهبا له. وقد عبرّ الشاعر عن هذا النقصان في إطار فني اتخذ من الهزل اسلوبا يناقض به الأسلوب الجاد الذي سارت عليه المؤسسة الرسمية.

المبحث الأول: صورة ابن الحجاج في المصادر القديمة:

أولا: صورة ابن الحجاج الشاعر: ترجمت المصادر القديمة لابن الحجاج، وذكرت أخباره، لكنها ركزت في الغالب على شعره، وعلى مذهبه الفني الغريب الشاذ، قال الثعالبي: "هو وإن كان في أكثر شعره لا يستتر من العقل بسجف، ولا يبني رجل قوله إلا على سخف. فإنه من سحرة الشعر، وعجائب العصر،... على أنه فرد زمانه في فنّه الذي شهر به، وأنه لم يسبق إلى طريقته، ولم يلحق شأوه في نمطه"[7]. وكذلك التوحيدي[8] الذي أشار إلى مذهبه قائلا: "سخيفُ الطريقة، بعيدٌ من الحد، قريعٌ في الهزل، ليس للعقل من شعره منال، ولا له في قرضهِ مثال، على أنه قويم اللفظ، سهل الكلام.. وإذا جد أقعى وإذا هزل حكى الأفعى"[9]. ويقول ياقوت: "شاعر مفلق، قالوا: إنه في درجة امرئ القيس، لم يكن بينهما مثلهما، وإن كان جلُّ شعره مبنيا على مجون وسخف. ويدخل شعره في عشر مجلدات أكثره هزل"[10]. وقال الصفدي: "لكنه في المجون إمام"[11]. وقد سلك أغلب الذين ترجموا لابن الحجاج هذا المسلك في التعريف بشعره ومذهبه الفني[12].

إن من يمعن النظر في تلك التراجم يجدها تركزت على علامتين مهمتين عدّتهما نقصا في شعر ابن الحجاج، هما: (السخف والهزل)، حتى أصبح يضرب بسخفه المثل، جاء في النجوم الزاهرة: "**يُضرب به المثل في السُخف والمداعبة والأهاجي**"[13]. لذلك نجد أن الثعالبي يحاول ان يسوّغ ذكره لهذا الشعر السخيف الذي يترفع عنه بقوله: "**ولولا أن جِد الأدب جِد وهزله هزل كما قال إبراهيم بن المهدي لصنت كتابي هذا عن كثير من كلام من يمد يد المجون فيعرك بها أذن الحرم، ويفتح جراب السخف فيصفع بها قفا العقل**"[14]. يشير قول الثعالبي إلى أن شعر ان الحجاج يضرب المقدس وكل ما هو عقلاني، ويرفع من شأن المدنس

(المجون) واللا عقلي (السخيف)[15] الذي يفتقد إلى الحكمة وأصالة الرأي. ويستعين ياقوت الحموي أيضا بقول الثعالبي عينه: "**لولا قول.., لصنت كتابي هذا عن مثل هذا المجون، وحديث كله شجون،..**"[16].

وإذا شئنا تحليل هذه العلامات وأولها (السخف) سنجدها مرتبطة ارتباطا وثيقا بطبقة العامة، يقول اسحاق بن إبراهيم بن وهب الكاتب مبينا معنى السخف: "**وأما السخيف من الكلام فهو كلام الرعاع والعوام الذين لم يتأدبوا، ولم يسمعوا كلام الأدباء، ولا خالطوا الفصحاء. وذلك معيب عند ذوي العقول، لا يرضاه لنفسه إلا مائق جهول..**"[17]. ويضع حدودا لاستعماله من قبل طبقة الخاصة، يقول: "**إلا أن الحكماء ربما استعملته في خطاب من لا يعرف غيره طلبا لإفهامه، كما أنه ربما تكلف الإنسان لمن لم يحسن العربية بعض رطانة الأعاجم ليفهمه. فإذا جرى استعمال اللفظ السخيف هذا المجرى، وغُزي به هذا المغزى كان جائزا. وللفظ السخيف موضع آخر لا يجوز أن يستعمل فيه غيره، وهو حكاية النوادر والمضاحك وألفاظ السخفاء والسفهاء، فإنه متى حكاها الإنسان على غير ما قالوا خرجت عن معنى ما أُريد بها، وبردت عند مستمعيها. وإذا حكاها كما سمعها وعلى لفظ قائلها وقعت موقعه، وبلغت غاية ما أريد بها، فلم يكن على حاكيها عتب في سخافة لفظها** "[18].

يتضح التصنيف الطبقي في قول ابن وهب الكاتب، فالسخف قد أُختص بطبقة العامة، وهو ما لا يجوز أن تستعمله الخاصة، طبقة العلماء والأدباء فهو يُعدُّ عيبا ومنقصة لا ترتضيه لنفسها، إلا في أحوال إفهام متلق جاهل لا يفهم إلا هذا القول السخيف، أو لحكاية النوادر والمضاحك فهي يجب أن تروى كما هي؛ لأن نلقها إلى أسلوب آخر يفقدها حلاوتها. "إن إنسان العامة العييّ قد أفصح عن عيّه خطاب الخاصة، من هنا لم يعد النقصان في البيان معطى ما قبليا وإنما أضحى إلى الصناعة أقرب وبالإنشاء أوثق صلة. يضحى استنقاص لغة العامة حينئذ تخييلا أنشأته طائفة تزعم التميز والتفوق، فالوسم بالنقصان ينتج عن متكلم يفترض أنه قد بلغ الكمال"[19].

إن قول ابن وهب الكاتب يشير بوضوح إلى قضية مهمة كانت شائعة آنذاك، وهي أن لكل طبقة ثقافة خاصة بها. وبما أنّ المجتمع منقسم على خواص وعوام، وبسبب من هذا الانقسام لوحظ نوع المتكلم من جهة انتمائه إلى الخواص والعوام، فالخواص هم الذين أوتوا حظا من العقل والعلم والدين وهم إلى الكمال أقرب. أما العوام، فعلى النقيض، لا عقل لهم ولا دين ولا مروءة وأتباع الهوى والجهل، ومن هنا فقد حلّت محلّ الإنسان الناقص وكانت موضع استنقاص وتحقير، وقد أفضى هذا التمييز الاجتماعي بين الناس إلى تمييز ثقافي أسهم في بروز ما يسمى بـ (ثقافة التمييز)[20]. بين ثقافة العامة وثقافة الخاصة، أو ثقافة عالمة وثقافة شعبية[21].

إنّ التراتبية الاجتماعية انعكست على الجانب المعرفي، فارتفعت فيه مكانة الشعر (ديوان العرب) على مكانة النثر الذي تراتب فصار أعلاه الكتابة التي اقترنت بالوزارة وأدناه القص الذي ارتبط بالعامة[22]. وحدثت تراتبية داخل هذه الأنواع فالشعر أعلاه ما يمجد قيم الأخلاق والرقي والعقل وأدناه ما يعبر عن العامة وهمومها، وما يرتبط بالهزل والسخف والمجون. وكذلك السرد أعلاه ما يتصل بالنثر الفني والخطابة، وأدناه ما يتصل بالهزل والعجائبي.

إنّ الموقف الرافض لهذا النوع من الأدب هو موقف رافض لكلا الأدبين: الشعبي من جانب، والهزلي من جانب آخر، فكيف إذا اجتمعت الطبيعتان معا في نظر المعنيين؛ الشعبية والهزلية؟ وكيف إذا كان ذلك في قالب اللهجة العامية[23]؟ وهذا ما حصل في شعر ابن الحجاج فقد اجتمعت هذه الجوانب في شعره مما جعل شعره يمثل النقصان الفني والأخلاقي في أعلى مستوياته.

ظهر مصطلح (السخف) بشكل جلي في القرن الرابع، ويبدو أن دلالة الكلمة أصبحت محصورة في الجانب الاخلاقي، فهي تشير في المجال الشعري، إلى اعتماد الكلام الفاحش الذي يثير الضحك والاستهجان[24]. ومن مميزات السخف كما بيّنها الدكتور علي جواد الطاهر، قائلا: "وأخص مزايا هذا السخف، ذِكر مالا تستسيغه الأخلاق العامة، مما يتعلق بالأمور الجنسية والمرحاضية ثم العبث بالمقدسات والأديان والضحك والإضحاك من مقاصده ويتبع هذا السخف في الموضوعات المطروقة سخف في الأساليب إذ يتعمد الركاكة التي تقربه من اللغة اليومية السوقية.."[25]. واقترب السخف من مفهوم (السفه)[26] من حيث هو مقولة أخلاقية، كما حصل مع القاضي التنوخي حين أطلق على ابن الحجاج اسم "**صاحب السفه في شعره**"[27]. وكقول الذهبي: "**شاعر العصر وسفيه الأدب وأمير الفحش**"[28].

أما المقولة الثانية التي ذكرتها كتب التراجم عن ابن الحجاج، فهي الهزل، وهو أسلوب استعمله ابن الحجاج يناقض الأسلوب الجاد، والمدونات القديمة حذرت منه؛ لارتباطه بالعامة، وبفقدان الهيبة والنقصان، إنّ خطاب الهزل يُذّل المرء ويحطُّ من رتبته ان كان من أهل المروءة والشرف، يقول الوشّاء بصدد مبدأ الهزل: "**اعلم أن من زي الأدباء، وأهل المعرفة والعقلاء، وذوي المروءة والظرفاء، قلة الكلام في غير أرب، والتجلل عن المداعبة واللعب، وترك التبذل بالسخافة والصياح بالفكاهة والمزاح؛ لأن كثرة المزاح يُذل المرء، ويضع القدر، ويزيل المروءة، ويفسد الأخوة، ويجرئ على الشريف الحر أهل الدناءة والشر**"[29]. ورأى ابن وهب الكاتب أن السفهاء والجهال استعملوا الهزل للخلاعة والمجون، ومتابعة الهوى، وأوصت العلماء بتجنب هذا الفن من الهزل[30].

ولعلّ القيمة التي تحضى بها العامة بوصفها ممثلا للإنسان الناقص تبرز في اضطلاعهم بدور المضحك، فكلامهم يقود إلى الإضحاك، فهو ليس من البيان الذي يسكت سامعه ولا الذي يقع في قبله موقعا، وإنما مندرجة في دائرة العجيب الذي يضحك– فالكلام السخيف يؤسس الهزل الذي ينتهك أفق انتظار السامع ويجيب بما لم يتوقع سماعه[31]. وبهذا يكون الهزل عنصرا من عناصر الرذيلة بارزا عن طريق القول، وهو ما يعارض الفضيلة بمختلف صنوفها. وهو بهذا يرتبط باللهو واللعب ومناقضة الجد[32]، لذلك نجد أن المضحك يصنف ضمن الشخصيات الناقصة في جوانبها العقلية أو الأخلاقية فخطابة قائم على السخف والمجون والهزل، فضلا عن تصوير القبح الذي يندرج في مجال الهزل، قال الذهبي عن ابن الحجاج: "**كان أمة وحده في نظم القبائح**"[33]. ذلك أن الهزلي قسم من أقسام القبيح، ولا غرابة أن تقترن الأعمال الرذيلة أخلاقيا بالقبح الجسدي والوضاعة الاجتماعية كما سنبين لاحقا.

وعلى الرغم من طغيان الأغراض الهزلية في التراث العربي، إلا أنها ظلت ثقافة مقموعة، هامشية إلى أبعد الحدود؛ لغلبة المفهوم القادح في قدر الفكاهة والمزاح، لدى المشتغلين بآدب وعلوم العربية، طالما أن دلالة النص القرآني جاءت قاطعة في جعل مضامين الفعل الهزلي والقول المازح سالبة لصنف هذا الخطاب أي مكانه في عرف العقل الراجح[34]. ومع ذلك يبقى الهزل رائجا في العوالم السرية للأمراء ومجالس أنسهم، بحيث ظلت تمثل دوما الوجه المخفي، في مقابل الوجه المكشوف للشعر والخطابة والمصنفات الشرعية[35].

نستدل مما تقدم، أن صورة ابن الحجاج بوصفه شاعرا في المدونات القديمة كانت صورة يعتريها النقص بأشكاله كافة، لاختياره مذهبا فنيا هو أقرب إلى مذاهب العامة الرعاع وأساليبهم، معتمدا القول الهزلي الذي يعارض المؤسسة الثقافية الجادة، فضلا عن الجانب الاخلاقي، لارتباط سخفه بوقائع ذات طابع جنسي، واعتماده معجم برازي شديد البذاءة، فضلا عن ربط سخفه بالمجال الديني.

ثانيا: صورة ابن الحجاج الإنسان: لا تطالعنا المصادر القديمة عن شخصية ابن الحجاج إلا بالقليل، فجلُّ ما ركزت عليه تلك المصادر يتصل بمذهبه الشعري، إلا أننا نلمح بعض الإشارات المهمة التي قد تكشف عن شخصية ابن الحجاج بوصفه إنسانا بعيدا عن مذهبه الشعري في قول التوحيدي الذي نقل لنا لقاء ابن العميد(36) به فقد كان ابن العميد متشوقا للقائه: " **فلما حضره أبو عبد الله احتبسه للطعام، وسمع كلامه، وشاهد سمته، واستحلى شمائله، فقام من مجلسه. فلما خلا به قال: يا أبا عبد الله، لقد والله تهت عجبا منك، فأما عَجَبي بك فقد تقدم؛ لقد كنت أُفلي ديوانك، فأتمنى لقاءك، وأقول: من صاحب هذا الكلام، أطيشُ طائش، وأخفُّ خفيف، وأغرمُ غارم؛ وكيف يجالس من يكون في هذا الإهاب؟ وكيف يُقارب من ينسلخ من ملابس الكتاب وأصحاب الآداب؟ حتى شاهدتك الآن، فتهالكت على وقارك، وسكون أطرافك، وسكوت لفظك، وتناسب حركاتك، وفرط حيائك وناضرِ ماء وجهك، وتعادل كُلك وبعضك؛ وإنك لمن عجائب خلقِ الله وطُرَفِ عباده. والله ما يصدق واحد أنك صاحب ديوانك، وأن ذلك الديوان لك، مع هذا التنافي الذي بين شعرك وبينك في جدّك**"(37). لقد قرأ ابن العميد شعر ابن الحجاج قبل أن يراه، وقد أصابه العجب مما تضمنه ذلك الشعر من سخف ومجون، وقد رسم صوره لصاحب هذا الشعر قوامها النقص، فقد وسمه بالطيش والخفه والغرم، بل كان يفكر كيف سيجالس رجلا بهذه الصفات القبيحة المنبوذة، علما أن هذا الرجل الموسوم بالنقص في أخلاقه ينتمي لفئة الكتاب وأصحاب الآداب، فهو بهذا النقص قد خرج عن دائرة الفضيلة والكمال، لما تتسم به هذه الفئة من علو ورفعة ومكانة مهمة آنذاك بين الطبقات المثقفة. إلا أن لقاء ابن العميد بابن الحجاج، ودراسة ابن العميد لشخصيته عن كثب كشفت لابن العميد صورة أخرى مغايرة لصورة النقص التي رسمها لها معتمدا على شعره، صورة لرجل أديب يتحلى بالفضائل والأخلاق الحسنة، فـ(الوقار، وسكون أطرافك، وسكوت لفظك، وتناسب حركاتك، وفرط حيائك وناضر ماء وجهك، وتعادل كلك وبعضك) كلها صفات مميزة لإنسان يتسم بالفضائل. وفي شعره تأتي نقائض هذه الصفات، من السفه والطيش وقلة الحياء وامتهان ماء الوجه، إلى غير ذلك. ويُقِّر ابن العميد أخيرا بحقيقة غاية في الأهمية، أن ابن الحجاج من عجائب خلق الله، وهذا مرده إلى التناقض الكبير بين شخصيته بوصفه إنسانا، وبين شخصيته بوصفه شاعرا، فكل واحدة منها تعارض الأخرى، إحداهما تمثل الفضيلة والأخلاق العالية، والثانية تمثل النقص في أعلى مستوياته.

النص الآخر الذي ورد فيه ذكر ابن الحجاج بوصفه إنسانا، في الوافي بالوفيات نقلا عن أبي بكر محمد بن عبد الله بن حمدون الذي جمع أخباره، قوله: "**بلغنى عمن يقع إليه من طبقات الناس في الأمصار والبلدان البعيدة، أنهم يتهمون أبا عبد الله بسخف في دينه ومروءته، وضعف عهد في مودته وأمانته، وتسلطه على الأعراض برويته وبديهيته، فإذا أخبرهم من شاهده، عما فيه من الفضل والحرية، والديانة والمروءة، والخَفَر والحياء، والتعلق بالخير، والتبري من الشر، والرجوع في ذلك إلى أُبوته الجليلة، وقديمه المشهور، وبيته المعروف، لم يصدقوه وشكوا في خبره**"(38). صورة ابن الحجاج في نظر الناس من مختلف الأمصار القريبة والبعيدة، صورة ناقصة رسمت عبر شعره، فانعكست على شخصيته وأخلاقه، وهي صورة تعكس نقصان الآخر المنفلت عن الأخلاق، والقيم، والدين، فهو متهم بجملة من النواقص التي تحط من قيمة المرء ومن رتبته في المجتمع، منها السخف، وضعف الأمانة، والعهد، والدين، والتسلط على أعراض الناس على العكس مما هو عليه بوصفه إنسانا، فصورته بوصفه إنسانا تخالف تماما صورته بوصفه شاعرا، فقد وصف بأنه صاحب فضل وديانة ومروءة وحياء وفعل خير إلى غير ذلك، وهذه الفضائل، أو الصفات الإيجابية منشؤها أنه سليل عائلة عرفت بالفضل والنسب العريق، وتنتمي لفئة الكتاب، وعلى الرغم من ذلك

فإن الناس لن تصدق أي صفة جيدة تلحق به، لما علق في أذهانهم من شعره الفاحش المتهتك. هذا التناقض بين شخصية ابن الحجاج الشاعر وبين شخصيته بوصفه إنسانا، أن يجمع بين الكمال والنقص في آن واحد، دفع بالقدماء إلى وصف سلوكه هذا بالازدواجية، قال التوحيدي عنه:" **وأما ابن الحجاج فقد جمع بين جد القاضي أبي عمر في جلسته وحديثه وقيامه وتخطئته مع حيادٍ كأنه مستعار من الغانية الشريفة، وبين سخف شعره الذي لا يجوز أن يكون لراويه مروءة به، فكيف لقائله؟ فنحن إذا نظرنا إليه تخيلنا صورة سخف شوهاء في صورة عقل حسناء. ولا تخلص هذه من هذه**"(39). ينطلق التوحيدي من منطلق أخلاقي في النظر لشعر ابن الحجاج السخيف، فهو يرى أن لا مروءة لم يروِ هكذا شعر، فما بالك بالقائل، الذي مزج بين جد القاضي أبي عمرو في جلسته وبين سخف شعره الذي لا يصح التمثل به. فإذا كان لابن الحجاج تزمت قاض، فلمَ يُصرّ على مجون مغنية قرعاء بهذا الشكل؟

تذكر الأخبار أن ابن الحجاج من نسل عائلة مصرية الأصل، هاجرت إلى بغداد، واحترفت الكتابة، وكانت لها السيادة في مصر(40)، وأول اتصال لابن الحجاج بالسلطة كان في بلاط المهلبي ومن المرجح أن أبي إسحاق الصابي(41) صديق ابن الحجاج وزميلة في الكتابة هو الذي أوصله لبلاط المهلبي، وقصائد ابن الحجاج في مديح المهلبي كانت تخلو من صنف المجون والسخف، مما يعني أن الحجاج كان ما يزال محافظا على القصيدة التقليدية المتزنة فكرة وبناء ودلالة(42). وعندما قدم المتنبي إلى بغداد سنة 351-352هـ وأعرض عن مدح المهلبي، جنّد المهلبي الشعراء لهجائه ثأرا منه، ومن هؤلاء الشعراء ابن الحجاج. وقد استعمل ابن الحجاج في هجاء المتنبي السخف والمجون تلبية لرغبة سلطة سياسية يعمل في ظلها، وهذا يعني أن "هجاء المتنبي اللاذع إيذانا ليس فقط بممارسة فن السخف، بل أيضا بتغيير جذري شامل للتقاليد الأخلاقية التي نشأت عليها عائلته"(43).

إنّ سماح السلطة السياسية ممثلة بالوزير المهلبي لابن الحجاج باستعمال هذا الفن، هو موافقة ضمنية على الإقرار بهذا اللون من القول الذي يمسُّ الأعراض، وينتهك المقدسات، ويضرب بالقيم عرض الحائط، سيّما أنه يرد في غرض كالهجاء، حيث تتهاوى الفضائل الإنسانية وترتفع النواقص البشرية في مقابل الثأر لكرامة المهلبي التي أهدرها المتنبي برفض مديحة والانضمام إلى مجلسه. وربما حمّل ابن الحجاج المهلبي إثم انتقاله من الرصانة إلى المجون والسخف، ويتضح هذا في أنه بعد وفاته قال قصيدة في رثائه وهذه القصيدة لم ترد في الديوان، بل وردت في كتب الأدب والتاريخ مما قد يشير إلى أنه ربما قد استبعدها لهذا السبب، فضلا عن العلاقة بينهما كانت علاقة نفعية خالصة، فقد كان ابن الحجاج يستخف بالمهلبي وبأخلاقه وأدبه(44).

إنّ رغبة ابن الحجاج في أن يحيا حياة حرة كريمة، متقربا من الحكام والوزراء، قد دفعه ذلك إلى المضي في طريق السخف والمجون إلى النهاية، وهذا يعني أن ابن الحجاج اتخذ من السخف وسيلة للتكسب لدى الحكام "وما هزله ومجونه إلا لون من ألوان الكدية أراد ان يستدر به أكف الكبراء الذين أبوا أن يدفعوا له وهو عاقل ودفعوا له وهو أحمق سخيف"(45). وساعده على ذلك أن الأمراء والكبراء استظرفوا ذلك منه واستحسنوه على الرغم من تمثيله للنقائص والمقابح البشرية، حظي بالقبول والإعجاب من الخاصة والعامة. قال الثعالبي عن إعجاب الخاصة: "**ولقد مدح الملوك والأمراء، والوزراء والرؤساء، فلم يخل قصيدة فيهم من سفاتج هزله، ونتائج فشحه، وهو عندهم مقبول الجملة غالي مهر الكلام، موفور الحظ من الإكرام والإنعام، ...وديوان شعره أسير في الآفاق من الأمثال، وأسرى من الخيال،..**"(46). وقال الصفدي نقلا عن أبي بكر محمد بن عبد الله بن حمدون الذي جمع أخباره، رأي العامة في شعره: "**حدثني صديق لي، قال:**

رأيت عند بعض الوارقين جزءا من هذا الشعر، فيه خمسون ورقة، فسألته أن يبيعنيه بما شاء، فـامتنع، وقال لي: هذا الجزء في دكاني، بمنزلة جارية طيبة الغناء، مليحة الوجه في القيان، يكتريه حُرفاء لي مجان طُيّاب، إذا اجتمعوا للشرب، بأجرة قد اتفقنا عليها، فاستثني عليهم بعد الأجرة أن يتنقّصُوا لي من مأكولهم ومشروبهم وفاكهتهم، بما يحمل إلي مع هذا الجزء إذا ردوه" (47). وبسبب من ذلك، فقد ارتفع سعر ديـوان شعره ارتفاعا مهولا حتى كتب الثعالبي: "**وبلغني أن كثيرا ما بيع شعره بخمسين دينارا إلى سبعين**"(48).

إنّ هذا التلقي الإيجابي لشعر ابن الحجاج من لدن شريحة واسعة من الخاصة والعامة، يـدلُّ بـشكل واضح على التغير الذي طال المنظومة القيمية في القرن الرابع الهجري، لقد كان الجو العام مهيـأ ومناسـبا لوجود هكذا مواضيع، وشيوع هكذا الفاظ مفرطة في إباحيتها ومعبرة عن الغرائز الجسدية، لـم يـسلم منهـا الخلفاء والوزراء والعلماء والفقهاء(49). فلقد انقلبت المعايير والقيم حتى صار المنكـر معروفـا والمعـروف منكرا، يقول آدم متز عن القرن الرابع: "أصبحت للمال قوة عظيمة، حتى سحقت طاحونته الكبيرة كـل قيمـة أخرى، وكل شيء صار يعرض من أجل المال، وبلغت وصمة حب المال والمكر لتحـصيله أعلـى طبقـات رجال الدولة"(50). فضلا عن اضطراب الأوضاع السياسية، والاقتصادية، وحياة البطالة والفراغ التي عاشـها الناس آنذاك لها أثر كبير في انحراف سلوك الأفراد الذين دفعت مظاهر الألم اليومي، والانسحاق الذاتي إلـى انتهاج مجموعة من المعايير والقيم التي تعيد اليهم –كما يعتقدون– جزءا من وجودهم المـسحوق، وتـوازن حياتهم المختل(51).

ومن البديهي –في مثل هذا الجو– ان تتراجع الفضائل الأخلاقية لصالح قيم النقصان التي أصـبحت عالما مثاليا. كان ابن الحجاج يعي حركة الانحدار التي أصابت المجتمع، لذلك عندما عوتب على سلوكه هـذا المذهب وهو ابن عائلة عريقة من الكتاب، أجابهم(52):

ورثـتهم صـنعة ولكـن ... دهـرهم لـم يرثـه دهـري

المبحث الثاني: صورة الانسان الناقص في شعر ابن الحجاج

توطئة

تسعى المجتمعات منذ القدم إلى اكتساب الفضائل الأخلاقية ونبذ الرذائل والسلوكيات الشاذة، وعلـى الرغم من اجتماع هذين الضدين (الفضائل والرذائل) في الغالب في نسيج الشخصية الإنسانية الواحـدة، إلا أن الإنسان لا يظهر إلا ما هو إيجابي وحسب، كي يحظى بالتقدير والاحترام بين ابناء ذلـك المجتمـع، وكـي تحتضنه المنظومة الاجتماعية التي ينتمي إليها، ويخفي ما هو سلبي أو رذيل، فلا يعلنه للناس، بل قد يمارسه سرا، لأنه مرفوض على صعيد المنظومة القيمية للمجتمع، لذلك يبقى أسير القاع ولن يغادره أبدا، ولذلك لـم يتجرأ أحد على الفخر بالرذائل أو المجاهرة بها عنوة، بل تبقى في العوالم السرية سواء أكانت طبقة الخاصـة أم العامة، لكن ما فعله ابن الحجاج يُعدُّ جريئا وغريبا في وقته، فقد جمع ما هو متفرق من عيـوب ونقـائص المجتمع الذي يعيش فيه، وينتمي اليه وأعاد تشكيلها فنيا، أي ارتفع بها إلى مستوى الخطاب الشعري بعـد أن كانت حبيسة في القاع، فقد رسم في شعره أنموذجا للإنسان الناقص الذي جمع المقابح كلها. ومثلمـا حـاول أغلب الشعراء رسم أنموذج للإنسان الكامل، فقد قام ابن الحجاج بالتأصيل للأنموذج النـاقص، لهـذا رمـت المنظومة الاخلاقية بشعره بعيدا حيث النقصان والرذيلة والوصم بالعار حتى بعد مماته، وبقي ديوانه حبيـسا لوقت طويل حتى ظهر إلى العلن، ومع ظهوره إلى العلن لم يتجرأ أحد على اقتنائه أو دراسته، لما فيـه مـن فحش وبذاءة إلا ما ندر.

إن ما نلاحظه في شعر ابن الحجاج أنه قد جمع نواقصه من صور الأرض، أي صور تسخر من العالم الروحي العلوي وترسخ صلة الإنسان بجسده، وهذه الصور ذات المعاني المحظورة والدلالات الفاحشة متمثلة بعالم البذاءة، وهي كلها تمثل عوالم الأنسان الناقص في أعلى تجلياته، وترتبط ارتباطا وثيقا ببيئة القاع، أي طبقة العامة تحديدا. وهذه النواقص ليست من بدع ابن الحجاج، لكنه خير من مثلها في شعره بمصداقية ومن دون غطاء أو ستار، فابن الحجاج يمثل أنموذجا مصغرا لعالم كبير يعجُّ بالنواقص الإنسانية. إن الصورة التي نقلها ابن الحجاج تستند إلى تجارب وخبرات عاشها الأديب في المجتمع الذي يصوره عن كثب، وهو مرتبط به ماديا واجتماعيا ونفسيا وأخلاقيا، وهكذا فإن المعرفة العميقة والشاملة بالمجتمع الذي يصوره الأديب تجعل الصورة التي يرسمها في أدبه غنية ودقيقة وتفصيلية وتتسم بالمصداقية.

النقصان، بوصفه عالما مثاليا عند ابن الحجاج:

خلق ابن الحجاج عالما مقلوبا تتهاوى فيه القيم والمثل الأخلاقية إلى الحضيض، لصالح قيم النقصان والسقوط إن صح التعبير. وفي هذا العالم يتحرك ابن الحجاج بحرية تامة غير آبه بالقيم والأعراف والدين، يكفُّ النقصان من أن يكون معطى سلبيا، بل عالما مثاليا ومعطى إيجابيا يتمثله الشاعر. ولقد صور ابن الحجاج علامات نقصانه بنفسه، وهي علامات تدل على الانحاط والتدني، وصاحب النقص هذا تمكن من تحويل قيم النقصان إلى نوع من المزايا التي يفتخر بها، ويحتج لها، بل يذهب بعيدا في قلب القيم حين يجعل من النقصان محسودا من قبل الفضيلة، يقول[53]:

قم نتحامق فالحمق مجدود ... والعقل في الفاضلين محدود

أما ترى الفضل حاسدا أبدا ... وأن حظَّ النقصان محسود

ويقدم ابن الحجاج نفسه بوصفه أنموذجا للإنسان الناقص عبر السخف، على اعتباره قيمه مقلوبه تغوص في قرار الأرض، يقول[54]:

رجل يدعي النبوة في السخـ ... ـف ومن ذا يشك في الأنبياء

جاء بالمعجزات يدعو إليها ... فأجيبوا يا معشر السخفاء

أضحى السخف قيمة عليا عند ابن الحجاج يفخر بها، بل ويدعي النبوة فيها من دون خجل أو مواربة، فهي من معجزاته التي جاء بها إلى مجتمع سخيف، وكأنه بهذا المذهب يحاكي الواقع الذي يعيشه وينقله في شعره.

ويفخر ابن الحجاج بمذهبه هذا وتفرده به، فلم يسبقه أحد من العرب والعجم إليه، قائلا[55]:

فإن لي مذهبا في السخف لا عجما ... شاركت في طيب معناه ولا عربا

شعري كنيف وصدري فيه مقعدة ... من خاطري ولساني قد مُلي ذربا

وفي قصائد متعددة يدعو المتلقي إلى هذا السخف ويحث عليه، ففي قصيدة مدح بها عضد الدولة يوم المهرجان لا يتوانى عن دعوة الناس إلى الفسوق، منها قوله[56]:

يا شيوخ الإسلام دعوة نسك ... أتوخى بها جزيل الثواب

سوِّدوا الصُّحف بالفجور ليعيا ... طول تحريرها على الحُسّاب

واخلطوا بالزّنى اللُّواط جميعا ... ليطول الحِسابُ يوم الحساب

ومن ذلك قوله عندما تولى الحسبة [57]:

يـــــا خلفـــــائي اســـــتجمعوا لتوعظـــــــوا فتـــــــسمعوا

نـــــصيحة لعلهـــــــا تـــــــضر أو لا تنفـــــــع

قـــد وضـــح اليـــوم لكـــم منـــي الطريـــق المهيـــع

أنـــــا الـــــذي عـــن غيِّـــه مـــا عـــاش لـــيس يُقلـــع

أنـــــا الـــــذي يفـــتنُ فـــي مجونـــــــه فيبـــــــدع

من البديهي أن يحظى هذا المذهب القائم على انتهاك المحرمات والمقدسات، بالرفض والازدراء من لدن المجتمع، لذا نجد أن صورة اللائم أو المعيب لمذهبه يتكرر في شعر ابن الحجاج، فهـو يمثـل الـرفض المجتمعي لهذا السخف الذي ينتهك الأعراض في مجتمع يقدس المنظومة الأخلاقية والدينيـة، ويطالبـه هـذا اللائم بالعدول عنه خوفا من يوم الحساب، لكن ابن الحجاج له رأي آخر، يقول(58):

يـــا عـــذولي علـــى ركـــوب المعاصـــي طمعـــا إن تركتهـــا فـــي خلاصـــي

ليـــت شـــعري أأنـــت تـــصفع عنـــي يـــا كثيـــر الفـــضول يـــوم القـــصاص

مـــا علـــيكم أطائعـــا كنـــت للـــــه بطـــــاعتي أم عاصـــــي

يخاطب ابن الحجاج عذوله الذي ينصحه بترك المعاصي، بحجاج مداره أنه هو من سيحاسـب يـوم القصاص على أفعاله وليس غيره، فلا شأن لهم إن كان طائعا لله أم عاصيا، فهي حياته وهو حر فيها. ومثلها صورة الواعظ التي تبرز أيضا بصورة المذكر له، والمخوف من يوم الحساب، لكن الشاعر يمعن فـي ذكـر ذنوبه والكبائر من دون خوف أو وجل، يقول(59):

وواعـــظ لـــي مـــذكّر أبـــدا يخطُـــرُ ذِكـــري لـــه علـــى فكـــري

قلـــتُ لـــه وقـــد لـــجَّ بـــي يخـــوفني يـــا شـــيخُ مـــاذا أنكـــرت مـــن أمـــري

مـــا لـــي ذنـــب أخـــاف منـــه إذا حوســـبت يـــوم المعـــاد فـــي الحـــشر

إلا الزنـــى واللـــواط ومـــا بينهمـــا تـــرك صـــلاة الأولـــى مـــع العـــصر

هـــذا وأكلـــي الرِّبـــا الحـــرام ولا أشـــــربُ إلا عتيقـــــة الخمـــــر

حتى أن ابن الحجاج يعدُّ ترك الفسوق بلاء، رافضا التوبة، منغمسا في نواقصه، يقول(60):

قـــــالوا تتـــــوب فقـــــال لا وأراد ان يـــــــــــــتجملا

شـــــيخٌ بنـــــار جهـــــنم قبـــــل المعـــــاد قـــــد اصـــــطلى

تلقـــــاه شـــــهما فارهـــــا عنـــــد الفـــــسوق محـــــصلا

فـــــإذا لهجـــــت بعذلـــــه وســـــــبيه أن يُعـــــــذلا

وطمعـــت فـــي أن يـــأنف الـــــشيخ الـــسّخيف ويخْجـــلا

خاطبـــــت شـــــيخا أبلهـــــا مثـــــل الحمـــــار مغفـــــلا

يُـــدعى إلـــى تـــرك الفـــسو ق فيـــستعيذ مـــن الـــبلا

وتتضح صورة اللائم أو العائب أيضا في مذهبه الشعري، فهو يطالبه بالعدول إلى الجد وترك الهزل، يقول(61):

وعائـــب لـــي بالـــسخف قلـــت لـــه — يـــا أحمـــق النـــاس كلهـــم طـــرا

ومـــذهب الجـــد لـــو هممـــت بـــه — مـــا كـــان لا مـــشكلا ولا وعـــرا

لكننـــي فيـــه مثـــل ســـائر مـــن — يقـــول مـــن أهـــل وقتنـــا شـــعرا

والنـــاس قـــد أحـــرزوا غرائبـــه — قبلـــي وأفنـــوا بجمعهـــا الـــدهرا

ابن الحجاج يرى أنه ليس من الصعب عليه أن يسلك المسلك الجاد في الشعر، فهو قد برع في هـذا اللون، يقول ياقوت عن شعره الجاد: "**وله مع ذلك في الجد أشياء حسنة لكنهـا قليلـة**"[62]، وأن الـشريف الرضي جمع الشعر الذي جانب السخف، وكان شعرا متخيرا حسنا جيدا[63]. لكنه أراد ان ينماز عن غيره من الشعراء، فباب الجد قد طرقه شعراء كثر، وأحرزوا غرائبه منذ زمن طويل، يقول ابن الحجاج واصفا شـعره الجاد[64]:

لـــو جـــدَّ شـــعري رأيـــت فيـــه — كواكـــبُ الليـــل كيـــف تـــسري

وإنّمـــا هزلـــهُ مجـــونُ — يمـــشي بـــه فـــي المعـــاش أمـــري

لقد عدل ابن الحجاج عن الشعر الجاد إلى الهزلي، لأنه وجد فيه خير وسيلة للتكسب، يقـول بهـذا الصدد[65]:

يـــا مـــن يُعيـــبُ علـــيّ إقـــ — ـــراري المُـــصرِّح بالفُـــسوق

وبـــلادة قـــد قـــذّرت — فـــي نظـــم أشـــعاري طريقـــي

ببـــضائع الـــسخف الثّميـــ — ـــن يقـــوم بـــين النـــاس سُـــوقي

فهو في السخف إمام لا يجاريه فيه أحد، يقول الثعالبي: "**إنه فرد زمانه في فنه الذي شهر به، وأنه لم يسبق إلى طريقته، ولم يلحق شأوه في نمطه** "[66]. يقول بهذا الصدد[67]:

والـــسُّخف لـــولاي لـــم يكـــن أبـــدا — يكتـــب فـــي دفتـــر ولا يقـــرا

ولـــم يكـــن يركـــب الـــرواة بـــه الـــ — ـــبر إذا جهّـــزوه والبحـــرا

هـــذا ولـــو كنـــت غيـــر محتـــشم — أوضـــحت فـــي الـــسخف عنـــدك العـــذرا

فـــو الـــذي لـــم أزل بطاعتـــه — أحمـــل فـــي كـــل ليلـــة وزرا

يفخر ابن الحجاج بمذهبه الذي لم يتجرأ أحد سواه على المجاهرة به، وتأليف ديوانه بـه، وقراءتـه أمام محفل من الناس في قصور الملوك والحكام، وبهذا أصبح شعره يتهافت الرواة على جمعه ويقطعون فـي سبيل ذلك البر والبحر، يقول الثعالبي: "**وديوان شعره أسير في الآفاق من الأمثال، وأسرى من الخيـال**"[68]. وعلى الرغم من فخره بمذهبه الشعري الذي يمثل النقصان بأعلى تجلياته، إلا أنه يعي في حقيقة الأمر أن مـا يأتي به هو وزر يحمله معه كل ليلة.

ويعترف ابن الحجاج أن الشعر قد رفع من رتبة شعراء غيره طرقوا باب الجد، أما هو فالشعر قـد حطّ من رتبته، لأنه طرق باب السخف والمجون، ويحاول أن يُعلي من شأنه ومن قيمته تجاه هذا النقـصان، عبر تبيان نسبه العريق إلى عائلة تنتمي إلى فئة الكتاب كانوا سادات مصر والموصل، ويحاول أن يسوّغ مـا فعله من مخالفة لطريقهم بأن زمانه يختلف عن زمانهم، يقول[69]:

والـــشعر يعلـــو بقـــدر قـــوم غيـــري ولكـــن يـــزري بقـــدري
أنـــا ابـــن نـــاس كـــانوا قـــديما ســـادات كتـــاب أهـــل مـــصر
ســـل عـــنهم الموصـــل الـــذي لا يخبـــر عـــنهم إلا بخبـــر
قـــوم بهـــم لـــيس بـــالقوافي ولا بـــنظم القـــريض فخـــري
ورثـــتهم صـــنعة ولكـــن دهـــرهم لـــم يرثـــه دهـــري

ومن ذلك قوله يعتذر عن مجونه وعدوله عن صنعة الكتابة، ويفخر بأصله العريق[70]:

ولـــي نـــسب يـــضم إليـــك حقـــي كمـــا ضُـــمت علـــى الكـــرم الـــشداعة
يـــشاكلها التـــأدب وهـــي قُربـــى حقـــوق وجوبهـــا فينـــا مطاعـــة
وبيـــت فـــي الكتابـــة شـــاهد لـــي بحظـــي فـــي القـــديم مـــن الـــصناعة
سوى أنـــي علـــى عهـــدي تركـــت الـــ ـــمروءة وارتكنـــتُ إلـــى الرّقاعـــة

ومع ذلك كله، فابن الحجاج يسير في طريق النقصان إلى النهاية غير مبالٍ باللائم أو المعيب عليه هذا الطريق، بل يهددهم بالصفع على القفا، في قوله[71]:

هـــذا حـــديثي ويـــدي فـــي قفـــا مُعيِّـــري بالـــسُّخف أو عـــائبي

وفي عالمه الذي تتهاوى فيه القيم، يرى الشاعر أن الصحو من هذا النقصان هو عار بحد ذاته وذلة، يقول[72]:

الـــصحو للـــشيخ عـــارُ وذُلـــةٌ وصـــغارُ

ولهذا يبقى منغمسا فيه، بل ينتقص من نفسه بأن يهبط بها إلى عالم الحيوان حيث الدونية، فقد شبه نفسه بالكلب، بل بلغ النقصان منه مبلغا أن أصبح يُعرِّي الكلاب، يقول[73]:

وكـــلاب الحـــراس لـــو عاشـــرتنا مـــا برحنـــا حتـــى نَعـــر الكلابـــا

وتارة أخرى، يجعل من نفسه أنجس من الكلب، وفي الخسة كالقرد، يقول[74]:

يـــا رتبتـــي فـــي الـــسقوط زيـــدي حتـــى تقـــري عينـــي حـــسودي
لا تقـــرب داري فـــإني أُنجّـــسُ الكلـــب مـــن بعيـــد
أُفّيـــهِ مـــن خـــستي فـــإني قـــد صـــرت قـــردا مـــن القـــرود

وينتقص من نفسه بأن يجعل نفسه مسخا كالقرد، وقذرا يأكل البذاءة تقربا من عز الدولة بعد رجوعه من هزيمه الاتراك[75]:

مُسختُ بعـــدك قـــرداً فـــي آســـته ذنـــب فاليوم قد عـــدتُ لمـــا عُـــدتَ لـــي بـــشرا
اليـــوم عـــدت نظيفـــا طيبـــا عطـــرا وأمـــس كنـــت كـــأني قـــد أكلـــت خـــرا

كما يجعل من نفسه عبدا يُشترى من النخاس إرضاء لممدوحه[76]:

أعمـــل اليـــوم أننـــي لـــك عبـــدٌ تـــشتريه مـــن حجـــرة النخـــاس

ولكي يرضي ابن بقية الوزير، يتمنى أن يكون بغلا له[77]. وفي سبيل الحصول على المال أو الطعام لا يتردد ابن الحجاج من الكدية والهبوط بنفسه إلى المسألة والذلة، علنا من الملوك والوزراء، يقول[78]:

فاليوم صرت أكدي الـ ماعون منكم بشعري

وقوله مخاطبا عز الدولة[79]:

وقد تناهى أمري إلى أن بكرت من منزلي أكدي

لقد تمكن ابن الحجاج من خلق عالم مثالي، قوامه النواقص الإنسانية، وقد احتضن هذا العالم لازمة مهمة، وهي لازمة البذاءة، وستكون مدار المبحث الآتي.

المبحث الثالث: لوازم النقصان الدائمة في شعر ابن الحجاج

لازمة البذاءة: البذاءة تعني في جذورها القديمة (Koproslkempos) البراز، وتعبر عن القذارة الأخلاقية أيضا. أما (الكوبرلوغوس) فهو الشخص الذي يتلفظ بالكلمات السيئة البذيئة. وتحولت هذه الكتابات البذيئة دلاليا إلى حالة مرفوضة اجتماعيا وأخلاقيا[80]. فالبذاءة تعد سمة من سمات الفقراء وأحيائهم، وتكشف عن الطبقة الدنيا من المجتمع.

تتأتى البذاءة أولاً من الحديث عن الفعل الجنسي والأعضاء الجنسية في الإنسان أو الحيوان. وتتأتى ثانيا من التكلم عما يطرحه الجسم الإنساني والحيواني من فضلات (البراز والبول والفساء والضراط) وعن مخارج هذه الفضلات[81]. هذا بينما تتطلب الأخلاق العامة الاحتشام في ذلك، أي عدم التطرق إلى هذه المواضيع وهذه الأعضاء والتلميح اليها فحسب عند الضرورة. ومما يزيد في بذاءة هكذا خطابات هو أنها شعبية المصدر في الغالب، أي عامية، والعوام يسمون الأشياء بمسمياتها المستعملة في حياتهم اليومية بلا لفّ أو دوران، أو بأقل الرموز والكنايات.

وإذا كانت البذاءة فضاء يحتضن الجسد الانساني، سواء ما يخرجه من فضلات أم ما يجسده من فعل جنسي وممارسات شاذة، فإنها تدخل في دائرة القذر والمقرف في عرف المجتمع. وتحضر مكونات هذا العالم مفصلة في شعر ابن الحجاج، فالعلامات المنتمية إلى حقل الكنيف والجنس كثيرة الورود في ديوانه، فقد اقتحمت الأغراض الشعرية كلها، فضلا عن أنها أصبحت من اللوازم الدائمة في شعر ابن الحجاج، فلا تكاد تخلو قصيدة منها إلا ماندر.

ويعد ابن الحجاج، أو كما يسميه كيليطو "منتهك المحرمات"[82]، صاحب أكبر خطاب بذاءة في تاريخ الأدب العربي، فهو لا يخجل من أن يصف نفسه بها أمام الملوك والحكام والوزراء، كقوله في وصف حاله[83]:

يا سيد الأمراء هذا كتاب شرائي
وقد ندمت عليه حتى أكلت خرائي

هذا النوع من القول البذىء نجده شائعا في البيئات الشعبية، وهو للآن مستعمل في اللهجة البغدادية العامية. ومنه قوله وقد سعى خصومه في قطع معاشه[84]:

يا سيدي جاءني حديث نكّس في الحال من رشاشي

خريـــــتُ فـــــي جبتـــــي نهــــارا   منــــــه وبالليــــــل فـــــي فراشـــــي

وقمـــــتُ مـــــستعجلا وتحتـــــي   شـــــبيهُ قرعيَّـــــة بمـــــاش

فهو ينتهك ما هو مقدس، الطعام وذلك بأن يُشّبهه بالقذارة في صورة تجعل المتلقي يتقزز من تخييل عالمين منفصلين استطاع ابن الحجاج دمجهما في عالمه البذيء الناقص.

وجرأة ابن الحجاج واستعماله لأساليب العوام جعلته يبين أن مكانته في الحضيض متمثلة بالكنيف، وفي الذلة كالكلب، قائلا [85]:

وأقـــسو أنـــا النَّـــذلُ الخـــسيسُ بخـــاطر   إذا جاش ثـــارت فـــي الوجـــوه الزوابـــع

ريـــاح تـــضيق الـــدور عنهـــا وتـــشتكي   إذا عصفت في الطُّـرق منهـا الـشّوارع

لذاك محلـــي فـــي الكنيـــف يـــسيخ بـــي   وقـــدري ذليـــل الخـــدِّ للكلـــب خاضـــع

ومن الملاحظ أن جوانب كثيرة من شعر ابن الحجاج تجمع مكونات هذا العالم الناقص (الكنيف) مع عالم الجسد متمثلا بصور الممارسة الجنسية، فتكون الصور فاحشة فاضحة لجمعها بين عناصر تؤلف مشهدا خياليا، فضلا عن ذلك ثمة عالم آخر له حضور مع هذين العالمين وهو عالم الطعام، وهـــو مـــرتبط أيـــضا بالجسد الإنساني لكن في جانبة الإيجابي. ومن المتعارف عليه أن حضور الطعام يعد مدعاة للفرح والحبـــور عبر التمتع بلذة الأكل، إلا أن الشاعر يعمد إلى تشويه هذا العالم، عبر رسم صور قبيحة يمتـــزج فيهـــا مـــع البذاء. فبدلا من أن يثير الطعام اللذة والمتعة يتحول إلى عالم يثير الاشمئزاز والتقزز. إن عالم البـــذاءة عنـــد الشاعر هو عالم الأرض والهبوط تجتمع فيه صور متنافرة تكون سبب الضحك الشعبي.

وتحضر هذه العوالم الثلاث في شعر ابن الحجاج مجتمعة في الغالب، ولا يقتصر حـــضورها علـــى شعره الهازل وحسب، بل يخترق في كل ما هو جاد، رسمي، قيمي، مقدس لتهوي به إلى الارض، وهي بهذا تعد عامل هدم وتشويش، "فالسخف يفرض معناه على الغرض الفني، ويحرفه عن مساره التقليـــدي، ليتحـــول خلسة ودون انتباه إلى غرض مضاد"[86]. ويتضح هذا بشكل كبير في غرض المديح، إذ تفتتح قصائد المـــديح التي يخاطب فيها الملوك والحكام والوزراء، بمقدمات بذيئة، وتشكل المقدمة البذيئة نسبة كبيرة مـــن قـــصيدة المديح، فقد تستأثر بالقصيدة كلها، أما المديح فلا يتجاوز أبياتا محدودة، ويعبر ابن الحجاج عن مذهبـــه هـــذا قائلا[87]:

وانظـــــــر فـــــــإن قـــــصيدتي   جمعـــــــت نجاســـــــات المقـــــــاذر

لكننـــــــــــي طهّرتُهـــــــــــا   بالمـــــدح فـــــي العـــــشر الأواخـــــر

وقد عبّر بعض الممدوحين عن شكواه من هذا المديح الغارق في بحر من السخف. قال أحد الوزراء وهو يرى بيتا جميلا في المديح: "**ما أصنع بهذا البيت، وهو مضموم إلى كل بيت سخيف في القصيدة**"[88].

وتحتل المقدمات الشبقية نسبة عالية من قصائد المديح ممزوجة بصور الكنيف والطعام، إذ يُـــصور فيها جسد المرأة، التي تعد كونا ناقصا في المجتمع، تصويرا يكشف عن قبحه، فهو يعتمد التشويه والتضخيم، تصل أحيانا إلى حد التصوير المغالي في السخرية، ففي شعره تحضر المـــرأة فعليـــا، لكنهـــا لا تحـــضر إلا بوصفها مغنية أو جارية وضيعة أو امراة ساقطة أو عجوزا. "ففي حضرة التهويل الـــسخيف، تفقـــد المـــرأة ملامحها الفعلية، وتتحول إلى مجرد وسيلة لإدانة الأخلاق التي ترائي بها هذه المرأة. وفي داخل هذه الإدانـــة لهذه المرأة بالتحديد توجد إدانة ضمنية للمجتمع الذي يقضي على هذه المرأة بالإدانة"[89]. والنماذج كثيرة فـــي

ديوانه، نذكر منها قصيدة في مديح الوزير محمد بن الحسين الصالحاني، إذ شغلت المقدمة الشبقية (33) بيتا، بعدها انتقل إلى المديح. من ذلك قوله في المقدمة يصف عجوزا[90]:

عجــــوز ســـــوء بـــــسرم فـــــظٍّ غلــــيظ موثـــــب

تفـــــسو فترمــــــي بنبـــــل ينـــــشك جـــوف الــــشوارب

مــــا لكنيـــــف دُفنـــــت فيـــــه لا يـــزال يُــسقى غيــث البُطـــون

ومن ذلك قصيدته التي يمدح الملك عضد الدولة فيها، ويهنئه بيوم المهرجان، فقـد جـاءت المقدمـة الشبقية بما فيها من سخف وبذاءة ومجون (37) بيتا، بعدها انتقل إلى المديح، منها قوله[91]:

يـصبو خراهـا إلـى عُثنـون عاشـقها كـأن بـين خراهـا واللحـى نـسبا

تـصم إن ضـرطت أُذن الرقيـب فـلا عـدمت فرقـع إسـت تُطـرش الرُّقبـا

ومدح عزِّ الدولة بمقدمة فيها فحش وبذاءة من (89) بيتا، أما المديح فكان (11) أبيـات فقـط[92]. وكذلك فعل عندما مدح الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، بقصيدة افتتحها بالفحش والبـذاءة[93]. وفـي مـديح الأمير شجاع بكران، افتتحها أيضا بمقدمة فيها فحش وبذاءة بعدها مديح، فيها يصف جارية بقوله[94]:

حتـــى فـــست فـــسوة رأيـــت أنـــا تغيـــراً فـــي وجـــه صـــبياني

تـــضوّع الجعـــس مـــن روائحهـــا فـــوق ســـطوحي وبـــين حيطـــاني

ثُـــمَّ بـــابط صـــنانه بـــصلٌ إذا تقربـــت منـــه أعمـــاني

ومن قصيدة قالها في مدح أحد الوزراء يفتتحها بالبذاءة والمجون والصفع، ومن ثم المديح[95]:

هـــذا الخـــراء بعينـــه فتفـــضل واعقـــل ســـبالك فـــي الخـــلا وتوكـــل

وإذا عزمـــت تحِـــلُّ عنـــه عُقـــدة بعـــد التـــورط فـــي الخـــرا فتمهـــل

وأخرى في مدح بهاء الدولة وطلب حاجته، يفتتحها قائلا[96]:

افتحـــي فـــاك فـــي الخـــلا وابلعينـــي وعلـــى شـــاربي أبيـــك اســـلحيني

أدخلينـــي بـــالطُّول فـــي أســـتك والعـــر ض ولكـــن مـــع الخـــرا أخرجينـــي

وفي الملك بهاء الدولة أيضا، جاء بمقدمة سخيفة، ومن ثم يمدح[97]:

شـــممتُ بالليـــل فاهـــا فكـــان مثـــل خراهـــا

ومـــا شـــممتُ كنيفـــا غنّـــى بطبـــل ســـواها

وسبق أن ذكرنا أن شعر ابن الحجاج على الرغم من بذاءته، إلا أنـه قـد حظـي بإعجـاب الحكـام والوزراء، وإلا كيف تجرأ ابن الحجاج على افتتاح قصائد في مدح الملوك والوزراء بهكـذا مقـدمات تثيـر التقزز والقرف، فقد "**كانت ملوك بين بويه وبني حمدان فمن دونهم لا تقبل منه مديحا حتى يكون الـسخف غزله، ولا يعجبها منه الجد إلا إذا كان الهزل أوله، ولقد مدح بعضهم بقصيدة لطيفة يذوب غزله، ينوب عن لمى الشفاه قبلُها وعن ثغور الغيد المنظمة مقبَّلُها فلم يهش له الممدوح، ولا جرى للبشاشة فـي قبولهـا روح،..**"[98]وابن الحجاج قد عبّر عن ذلك بقوله[99]:

لـــو لـــم أُشـــبب بـــشعر مـــا طـــاب للنـــاس شـــعري

إن تشبيب ابن الحجاج بالمرأة بهذه الطريقة القبيحة والمنفِّرة، وبهذه الإباحية المفرطة قد نال استحسان الناس آنذاك، كما يتضح من قوله، على الرغم من أن المرأة أضحت فيها مشوهة، فبدلا من أن تثير الممارسات الجنسية الشهوة والرغبة في المتلقي عبر أوصاف المرأة الجميلة، جعلها ابن الحجاج منفّرة، بما خلقه من قبح ورعب فيها، فضلا عن ذلك كان جسد المرأة مسرحا لتخييلات ابن الحجاج التي خالفت المألوف وجعلت هوية المرأة وجسدها في تغريبية، فقد جعل للأعضاء عين وأنف وأذن[100] وجعل لها خندق وسندان ومطارق[101]، ولها براثن ومخالب[102]، وروابي وشوارب[103]، وقد تشبه الطيور كالغراب، والدجاج، والحشرات كالعقارب، والضفادع، والحيوانات، والنباتات، والغول، إلى غير ذلك[104]. ولا يفوت ابن الحجاج ان يؤنسن الأعضاء ويجعلها تتكلم وتتكس رأسها[105]. وهكذا يقوم السخف بالربط بين عناصر متنافرة والجمع بين عوالم مختلفة، لينزع الألفة عن الأشياء المألوفة، وإضفاء لمسة تغريبية تهويلية تجعله مستحيلا من الناحية الفعلية[106].

لقد أعاد ابن الحجاج إنتاج المتخيل الجمعي حول المرأة، ولكن بطريقة قبيحة مشوهة، حتى أنه يراها –كما يراها المجتمع– سبب المشاكل كلها، يقول مشيرا إلى واقعة الزباء مع جذيمة الأبرش[107]:

فمضى الشيخ هالكا، ومتى أهـ ... ـلك قطُّ الرّجال إلا النّساءُ

ومن أشعاره البذيئة التي يستعمل فيه أعضاء الحيوانات ومنها الكلاب بوصفها طعاما مما يثير الاشمئزاز والتقزز خاصة عندما يشبهها بالأطعمة الشهية كالكباب، في قوله[108]:

ينفـعُ الأعداء صفعي الأعادي ... بشُمشُكي تطوُّعا واحتسابا
أطلبوا لي كُليبة فوق زبل ... وأجعلوا لي من سُرمها جُوذابا
ثم هاتوا بطونها مع خراها ... فاجعلوها أمام عيني كبابا
ومصوص الجرذان نقُّوه واحشـ ... ـوها كرفسا مقطعا وسذابا
بعد أن تسلخوا الجلود برفق ... واحذروا ان تُقطّعوا الأذنابا
لحم هذا المصوص من كثرة الشحـ ... ـم ولا الموم قد تهرّى وذابا

يشتهي ابن الحجاج في هذه الأبيات لحم الكلاب وبذاءتها، بمقاربتها بأطعمة شهية كالكباب والجوذاب. ومنها قوله يصف جارية [109]:

ولها فسا دسم كريـ ... ـح السَّمن في خُبز الفطائر
وخرا فجاجته تُشيّـ ... ـبُ ريحُها شَعَر المناخر

ومن ذلك أيضا يصف عجوزا في مقدمة شبقية لقصيدة مديح يقول فيها[110]:

ذات سرم أبدا يعطـ ... ـس من غير زكام
سلحه الأصفر يحكي ... سلْح صبيان الفطام
فخراها زيرباج ... واستها قدر برام

إنّ العبث بالأغراض الشعرية عبر اقحام عالم البذاءة فيها لا يقتصر على غرض المديح وحسب، ففي الرثاء تدخل كل النواقص الإنسانية في غرض يستهدف عرض محاسنها، ففي رثائه لامرأة سقطت من أعلى يخلق ابن الحجاج سببا جنسيا ناقصا لوفاتها[111]:

عفـــــا الله عنهـــــا يـــــوم ودّعـــــت	أجـــل فقيـــد فـــي التـــراب مغيـــب
ولـــو أنهـــا أعتلّـــت لكـــان مـــصابها	أخـــف علـــى قلـــب الحـــزين المعـــذّب
ولكـــن رأت فـــي الأرض أفعـــى مجـــدّلا	علـــى قـــدر غُرمـــول الحمـــار المُـــشعّب
فظننتـــــه... والظنـــــون كـــــواذب	إذا أخبرتْ عـــن علـــم مـــا فـــي المغيـــب
فـــأهوت إليـــه مـــن يفـــاع ودونـــه	ثمـــانون باعـــا مـــن علـــو مُـــصوّب

وكذلك في رثائه الماجن البذيء لسبكتكين القائد التركي، الذي أصابه ذرب، فلم تزل بطنه تجري إلى أن مات، فهو رثاء يحمل معاني الهجاء، افتتحه بالمجون ومنه قوله(112):

أفـــسو لعلـــيٍّ أسُـــلُّ مـــا فـــي	بطنـــي مـــن دائـــه الـــدفين
واســـتي تبكـــي بفـــرد عـــين	لفـــقـــد عينـــي ســـبكتكين
مـــا لكنيـــف دُفنـــت فيـــه	لا يـــزال يُـــسقى غيـــث البُطـــون

إلى نهاية المرثية. وكذلك قصيدته في رثاء والدة الوزير ابي منصور يعزِّيه، يفتتحها برثاء رسمي جاد، بعدها ينتقل إلى هجاء أعدائه بأسلوب فاحش بذئ(113).

ولا يقتصر خلق أغراض مضادة تستهدف النواقص الإنسانية على الرثاء بالطبع، بل يتعدى ذلك إلى جميع الأغراض الشعرية. في الفخر مثلا تحول بلاغة التهويل عند ابن الحجاج الفخر التقليدي إلى فخر مضاد، أي أن الشاعر يكف عن التباهي بما يعتبره المجتمع مكارم تستحق التقدير، ويفخر بدلا منها بمساوئ إيجابية، إذا صح التعبير في قصيدته التي قالها يوم توليه الحسبة(114).

أنـــا الـــذي عـــن غيـــه	مـــا عـــاش لـــيس يقلـــع
أنـــا الـــذي يَفْـــتنُ فـــي	مجونـــــه فيبـــــدع
إذا حُـــشرتُ لـــيس لـــي	فـــي عفـــو ربـــي مطمـــع
إيـــــاكم للقـــــصف أن	يخلـــــو مـــــنكم موضـــــع
فـــإن إبلـــيس معـــي	إذا اتفقنـــــا يُجمـــــع

ويصل ابن الحجاج في الهجاء بالسخف إلى منتهاه، من إلصاق النواقص الإنسانية بغيره والسخرية منهم، من ذلك يهجو ابن سكرة قائلا(115):

يـــا أبـــيض الـــذقن أن كنـــ	ـــت راغبـــا فـــي الثـــواب
فهاتهـــا جـــوف بطنـــي	للنـــصف مـــن شـــهر آب
إذا تـــسلس جعـــسي	فـــصار كالدوشـــاب

وقوله يهجو عيسى بن مرون بعد أن وعده بوعد ولم يفِ به، وهي طويلة مليئة بالمقاذر(116):

ولقـــد عهـــدتك تـــشتهي	قربـــي وتـــستدعي حـــضوري
يـــا خريـــة العـــدس الـــصحيـ	ـــح النـــيء والخبـــز الفطيـــر
فـــي جـــوف منحـــل الطبيـ	ـــعة والقـــوى شـــيخ كبيـــر
وأرى الجفـــا بعـــد الوفـــا	مثـــل الفُـــسا بعـــد البخـــور

ولا يبالي ابن الحجاج من التعرض للمقدسات والأديان والفرائض الدينية بإقحام البذاءة فيها[117]، فضلا عن استحضار الشخصيات التاريخية والدينية في عالم البذاءة[118]، والمحاكاة الساخرة البذيئة للنماذج الشعرية الرصينة في التراث العربي[119]. لذلك يقول الثعالبي: " **ولما غلب على شعره هذا الفن من المقاذر، وما ينضاف إليها، سئل يوما ابن سكرة عن قيمة ديوان شعره، فقال: قيمته بربخ،** .." [120].

لقد رسم ابن الحجاج صورة سلبية لمجتمعه، وهذا لا يعني دائما أن تصوير القبح يمثل إساءة إلى المجتمع وهدمه، بل قد نلمح فيه رغبة عارمة في الإصلاح والتغيير نحو الأفضل إذ بفضل الصورة التي يقدمها المبدع يستطيع المجتمع أن يرى مرآة أعماقه بما فيها من قبح وجمال، فترتسم عبرها ملامح ذاته والآخر [121].

إن خلق عوالم تمتاز بالتشويه المتعمد عبر البذاءة، تعكس زاوية النظر التهويلية التي تمثل نظرة ابن الحجاج للعالم، "فهو ينتقده، ويبالغ في تشويهه، لكي يكشف عن مقدار الرعب الساكن فيه. وفي شعر ابن الحجاج نزعة نقدية مضمرة، تحن إلى ما لم يوجد بعد، إلى عالم يتخلص من التشويه القذر اللصيق بهذا العالم ... ففي سخرية ابن الحجاج منظور نقدي يشوه العالم، لأنه يريد أن يتبنى عالما بديلا أقل تشويها، إن لم يكن خاليا من التشويه"[122].

إن ما عدّه المجتمع بذيئا وقبيحا ومرفوضا أضحى عند ابن الحجاج أثيرا وجميلا، فقد تمكن من إعادة خلق هذا القبيح والمنفر في صورة جميلة حظيت بإعجاب شريحة واسعة. وأضحى القبح عند ابن الحجاج أسلوبا ذا وظيفة تصحيحية.

الخاتمة:

إن الموقف المعادي تجاه هذا الآخر المنفلت عن قيود الدين، والأعراف، والقيم، هو طمس لملامح الشخصية الإنسانية، فضلا عن أن من يجاهر بهذا النقصان سيكون محطّ إقصاء، وتهميش، ونفي من الخارطة الأخلاقية، والثقافية، وسيقع نتاجه الفكري ضحية لجرأته في ملاحقة نواقصه والجهر بها أمام الناس.

لقد حاولت عبر دراسة شعر ابن الحجاج النيلي البغدادي سبر أغوار هذا العالم الناقص، وقد توصلت فيه إلى نتائج غاية في الأهمية، نوجزها بالآتي:

لا يوجد مفهوم قار للنقصان، بل يختلف باختلاف المرجعيات التي يصدر عنها، سواء أكانت دينية أم فلسفية أم بلاغية أم صوفيه أم مؤسسة أدبية.

يتشكل النقصان في المؤسسة الأدبية انطلاقا من ثنائية خاصة/ عامة، فالخاصة تقترب من الكمال، لامتلاكها العقل، والعلم، والفضيلة إلى غير ذلك. أما العامة فهم إلى النقصان أقرب، لاحظَّ لهم من العقل، والعلم، فضلا عن أصولهم الوضيعة.

قد يرتبط النقصان بالمرتبة الاجتماعية، فالعامة طبقة ناقصة وهي على أصناف متنوعة، فمنهم المكدين، والطفيليين، والمتحامقين، والعيارين وغيرهم وكل من يقوم بأفعال دنيئة وضيعة كالسرقة، والكدية، والتحايل، والتطفيل. وقد يرتبط النقصان بالجوانب العقلية متمثلة بالحمق، والجنون، أو يرتبط جسديا مثل أصحاب العاهات والعيوب، وهذا يعني أن النقصان قد طال الإنسان بجانبه الخُلقي والخَلقي.

تختلف صورة ابن الحجاج بوصفه شاعرا في المدونات القديمة عن صورته بوصفه إنسانا، فهو بوصفه شاعرا عكس لنا أنموذج الإنسان الناقص اجتماعيا وأخلاقيا وفنيا؛ لاعتماده على مذهب السخف

والهزل. أما صورته بوصفه إنسانا فتختلف تماما، فهو صاحب خلق ومروءة وأصل عريق ينتمي لفئة الكتاب. وهذا التناقض بين الشخصيتين جعلت ابن الحجاج يوسَم بالازدواجية.

إنّ اضطراب الأوضاع السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، وانقلاب المعايير في القرن الرابع الهجري، فضلا عن التكسب، والرغبة في التفرد بين أقرانه من الشعراء، واكتساب الجاه والشهرة، كانت عوامل ساهمت في تحول ابن الحجاج من الجد إلى الهزل، ومن الوقار والحشمة إلى السخف والمجون، ساعده في ذلك إقبال الملوك والحكام على شعره، فضلا عن الطبقة العامة التي وجدت فيه تعبيرا عن وجودها المسحوق بإيجاد قيم بديلة تتلاءم مع هذا الواقع المتردي.

يعد ابن الحجاج أنموذجا للإنسان الناقص اجتماعيا وأخلاقيا، فضلا عن الجانب الفني، فقد اختار مذهبا هو أقرب إلى مذاهب العامة الرعاع، معتمدا القول الهزلي الذي يعارض المؤسسة الثقافية الجادة، فضلا عن ارتباط سخفه بوقائع ذات بعد جنسي واعتماده على معجم برازي شديد البذاءة، وارتباط سخفه أيضا بالمجال الديني.

في عالم ابن الحجاج الناقص تتهاوى القيم والأخلاق لصالح قيم النقصان، لهذا تنقلب المفاهيم ويصبح النقصان عالما مثاليا، يفخر ابن الحجاج فيه ويدعو الناس إليه من دون خجل أو خوف يتضح ذلك من أشعاره التي يبين فيها فضل النقائص الإنسانية.

تتكرر صورة اللائم والواعظ في شعر ابن الحجاج الذي يطالبه بالعدول عن السخف في حياته، وعلى الصعيد الفني أيضا، لكن ابن الحجاج لا يبالي بذلك، ويحاجج ذلك اللائم بحجج مقلوبة تعكس العالم الناقص الذي يتبناه.

تعد البذاءة لازمة مهمة من لوازم النقصان المهمة في شعر ابن الحجاج، فلا يكاد يخلو شعره منها، ولا يقتصر حضورها على الجانب الهزلي في شعره، بل اقتحمت الأغراض الشعرية الجادة منها، كالمديح، والفخر، والرثاء، فضلا عن الأغراض الأخرى. وتحولت هذه الأغراض بفعلها إلى أغراض مضادة.

شغل خطاب البذاءة حيزا كبيرا من مقدمات قصائد المديح في شعر ابن الحجاج، وقد استأثر بالنص كله مقابل أبيات معدودة للمديح. وحلّت المقدمات الشبقية محل المقدمات الغزلية التي صور فيها ابن الحجاج الوجه الآخر للمرأة الناقص اجتماعيا، المغنية، والساقطة، والعجوز، وقد اعتمد تصويره على التشويه والتضخيم الذي يصل إلى حد المغالاة في السخرية. ولا يبالي ابن الحجاج من إدخال سخفه حتى في مجال الطعام، والمجال الديني، وفي معارضة النصوص الشعرية الرصينة في التراث العربي.

يعكس التشويه والقبح الذي يعتمده ابن الحجاج في شعره، نظرة الشاعر إلى العالم، فهو ينتقده بهذه الوسيلة بهدف إصلاحه، وهو فضلا عن ذلك يتصف بالواقعية والموثوقية، لأنه يُعرّي الواقع، وجوانب كثيرة من الحياة السياسية، والاجتماعية، والثقافية، فضلا عن أنه يروم التأصيل للأخلاقيات، والانحدار الأخلاقي في تلك الحقبة الزمنية مما سكتت عنه أقلام الشعراء وكثير من مثقفي ذلك الوقت.

الهوامش

(1) ينظر: سيميائية الإنسان الناقص في السرد العربي القديم، د. نسرين السنوسي، 182.

(2) ينظر: فن الشعر، أرسطو، 16، 18، 26.

(3) ينظر: كتاب أرسطوطاليس في الشعر، ضمن، فن الشعر، عبد الرحمن بدوي، 88. ورسالة في قوانين الشعراء، ضمن، فن الشعر، عبد الرحمن بدوي، 153. كتاب الشفاء، لابن سينا، ضمن، فن الشعر، عبد الرحمن بدوي، 188، 174–175. تلخيص كتاب أرسطوطاليس في الشعر، فن الشعر، عبد الرحمن بدوي، 207–208، 219. وينظر: أصول النقد العربي القديم، د. عصام قصبجي، 58–93.

(4) ينظر: الإنسان الكامل في الفكر الصوفي، عرض ونقد، إعداد: د.لطف الله بن عبد العظيم خوجه، 141–145. والانسان الكامل في الإسلام، د. عبد الرحمن بدوي، 105–121. وسيميائية الإنسان الناقص، 145–146.

(5) ينظر: سيميائية الإنسان الناقص، 43.

(6) المصدر نفسه، 181.

(7) يتيمة الدهر، 3/ 35.

(8) أبو حيان التوحيدي(ت400هـ): علي بن محمد بن العباس أبو حيان التوحيدي، صوفي السمت والهيأة. عربي الأصل، نشأ في بغداد، وكان متفننا في جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام على رأي المعتزلة، وكان جاحظيا يسلك في تصانيفه مسلكه، فهو شيخ في الصوفية، وفيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة، وإمام البلغاء، وعمدة لبني ساسان. مضى إلى الري وصحب الصاحب بن عباد وقبله أبا الفضل بن العميد فلم يحمدهما، وعمل في مثالبهما كتابا. ولأبي حيان تصانيف كثيرة أحرقها قبل وفاته وما بقي منها: الصداقة والصديق، الإمتاع والمؤانسة، الإشارات الإلهية، المقابسات وغيرها. ينظر: معجم الأدباء، 5/ 1923–1946. وفيات الأعيان، لابن خلكان، 5/112–113. الأعلام، للزركلي،4/ 326.

(9) الإمتاع والمؤانسة، 1/ 137.

(10) معجم الأدباء، 3/ 1040.

(11) الوافي بالوفيات، 12/ 205.

(12) ينظر: وفيات الأعيان، 2/ 168–171، شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي، 4/487–488، العبر في خبر من غبر، الحافظ الذهبي، 2/181، نسمة السحر بذكر من تشيع وشعر، ضياء الدين اليمني الصنعاني، 2/13–14.

(13) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لابن تغري بردي الأتابكي، 4/ 206.

(14) يتيمة الدهر، 3/ 35.

(15) ينظر: لسان العرب، مادة (سخف).

(16) معجم الأدباء، 3/ 1040.

(17) البرهان في وجوه البيان، 200.

(18) المصدر نفسه، 200–201.

(19) سيميائية الإنسان الناقص، 168.

(20) ينظر: نقد ثقافة التخلف، د. جابر عصفور، 144.

(21) ينظر: السرد العربي، د. سعيد يقطين، 27-28.

(22) نقد ثقافة التخلف، 148.

(23) ينظر: بيان الحد بين الهزل والجد، دراسة في أدب النكتة، بو علي ياسين، 66.

(24) ينظر: درة التاج من شعر ابن الحجاج، تحقيق: د. علي جواد الطاهر،1/ 28.

(25) الشعر في العراق وبلاد العجم، 1/ 73.

(26) من معاني السفه، خفة الحلم، وخفيف العقل، الجاهل والأحمق، ينظر: لسان العرب، مادة (سفه).

(27) نشوار المحاضرة، 2/ 219.

(28) الأعلام، للزركلي، 2/ 231. ومعجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى سنة 2002، كامل سلمان الجبوري، 2/ 89.

(29) الموشى، 21.

(30) البرهان في وجوه البيان، 200.

(31) ينظر: سيميائية الإنسان الناقص، 178.

(32) ينظر: المصدر نفسه، 252-255.

(33) الأعلام، 2/ 231. ومعجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى سنة 2002، كامل سلمان الجبوري، 2/ 89.

(34) ينظر: الفتنة والآخر، أنساق الغيرية في السرد العربي، شرف الدين ماجدولين، 73.

(35) ينظر: المصدر نفسه، 74.

(36) ابن العميد (337-360هـ): هو أبو الفضل محمد بن الحسين الكاتب المعروف بابن العميد، والعميد لقب والده وصفه الثعالبي بأحسن عبارة قال فيها: "عين المشرق ولسان الجبل، وعماد ملك آل بويه وصدر وزرائهم، وأوحد العصر في الكتابة وجميع أدوات الرياسة.. يدعى الجاحظ الأخير، والأستاذ الرئيس.. وكان يقول: بدأت الكتابة بعبد الحميد، وختمت بابن العميد". وزر لركن الدولة البويهي صاحب الري، كان متوسعا في علم الفلسفة والنجوم والأدب والترسل. ينظر: يتيمة الدهر،3/ 183-186. الفهرست، لابن النديم، 149. وفيات الأعيان،5/ 103-113.

(37) الإمتاع والمؤانسة، 1/ 137-138.

(38) الوافي بالوفيات، 12/ 206.

(39) الصداقة والصديق، 108-109.

(40) ينظر: ديوانه، 1/ 17. وينظر: ديوانه، 3/ 136.

(41) أبو إسحاق الصابي (313-384هـ): هو إبراهيم بن هلال بن هارون، الصابي، الحرّاني، من كتاب الدولة البويهية، وصاحب البلاغة والبراعة والصناعة والرسائل البديعة والشعر، نشأ ببغداد وتأدب بها، وخدم الخلفاء والأمراء من بني بويه والوزراء، وتقلد أعمالا جليلة، ومدحه الشعراء وكان متشددا في دينه، وجهد عليه عز الدولة أن يسلم فلم يفعل، ولكنه كان يصوم رمضان مع المسلمين، ويحفظ القرآن حفظا يدور على طرف لسانه ويستعمله في رسائله، وعندما تولى الحكم عضد الدولة قبض على الصابي سنة 367هـ وسجنه ووضع في سجنه كتابه "التاج العضدي". رثاه الشريف الرضي ولما عاتبه الناس قال: (إنما أرثي فضله). ينظر: الإمتاع والمؤانسة، 1/ 67. ويتيمة الدهر،2/287-292. والمنتخل في تراجم المنتحل، للثعالبي،

295-296. الفهرست، 149. ومعجم الادباء، 1/130-131. وأخبار العلماء بأخبار الحكماء، للقفطي، 54-55. ووفيات الأعيان، 1/12.

(42) ينظر: ديوانه، 1/ 18.

(43) المصدر نفسه، 1/ 19.

(44) ينظر: ديوانه، ج1/ 20.

(45) موسوعة أدب المحتالين، د. عبد الهادي حرب، 187-188.

(46) يتيمة الدهر، 3/ 36.

(47) الوافي بالوفيات، 12/ 206.

(48) يتيمة الدهر، 3/ 40.

(49) ينظر: أدب المهمشين في العصر العباسي، دراسة في ضوء النقد الثقافي، د. نورس ابراهيم عبد الهادي، 428.

(50) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، 2/ 174.

(51) ينظر: أدب الكدية في العصر العباسي، أحمد الحسين، 158. والإبداع والسلطة في شعر العصر العباسي الأول، د. عيسى المصري، 232-240.

(52) ديوانه، 2/ 386.

(53) المصدر نفسه، 1/ 474.

(54) المصدر نفسه، 1/ 142.

(55) المصدر نفسه، 1/ 204.

(56) المصدر نفسه، 1/ 232.

(57) المصدر نفسه، 3/ 131.

(58) المصدر نفسه، 3/ 49.

(59) المصدر نفسه،2/ 242-243.

(60) المصدر نفسه،4/6.

(61) المصدر نفسه، 2/ 470-471.

(62) معجم الأدباء، 3/ 1040.

(63) وفيات الأعيان، 2/ 169.

(64) المصدر نفسه،2/ 385.

(65) المصدر نفسه، 3/ 306.

(66) يتيمة الدهر، 3/ 35. وينظر: الوافي بالوفيات، 12/ 205.

(67) المصدر نفسه، 2/ 470-471.

(68) يتيمة الدهر، 3/ 36.

(69) المصدر نفسه، 2/ 386.

(70) المصدر نفسه، 3/ 136.

(71) المصدر نفسه، 2/ 214.

(72)المصدر نفسه، 2/ 590.

(73)المصدر نفسه، 1/ 247.

(74)المصدر نفسه، 1/ 472.

(75)المصدر نفسه، 2/ 379.

(76)المصدر نفسه، 3/ 11.

(77)المصدر نفسه، 2/248-249.

(78)المصدر نفسه، 2/ 208.

(79)المصدر نفسه، 1/ 448. وينظر: ديوانه، 2/ 245.

(80) ينظر: الإنسان والجدار، بدر عبد الملك، 129. وجماليات البذاءة في الحياة اليومية، د. قيس كاظم الجنابي، 34-35، مجلة التراث الشعبي، ع/3، السنة/42/2011.

(81) ينظر: بيان الحد بين الهزل والجد، 370.

(82) المقامات، 28.

(83) المصدر نفسه، 1/ 144.

(84) المصدر نفسه، 3/ 46. القرعية: مرق القرع.

(85)المصدر نفسه، 3/ 110. وينظر: ديوانه، 3/ 233. و3/ 233.

(86)المصدر نفسه، 1/ 61.

(87)المصدر نفسه، 2/ 278.

(88) الامتاع والمؤانسة، 1/ 139.

(89)المصدر نفسه، 1/ 66.

(90)المصدر نفسه، 1/ 154.

(91)المصدر نفسه، 1/ 201-202.

(92)المصدر نفسه، 2/ 237-245. وينظر: ديوانه، 2/ 226-229و2/ 511و544.

(93)المصدر نفسه، 2/ 574.

(94)المصدر نفسه، 4/ 470-471.

(95)المصدر نفسه، 3/ 517-520.

(96)المصدر نفسه، 4/ 449-500.

(97)المصدر نفسه، 4/ 533.

(98) مسالك الأبصار في ممالك الأبصار، لأبي فضل الله العمري، 15/ 245.

(99) ديوانه، 2/ 239.

(100)المصدر نفسه، 3/ 316.

(101)المصدر نفسه، 3/ 325.

(102)المصدر نفسه، 1/ 185.

(103)المصدر نفسه، 1/ 231 و1/ 256.

(104)المصدر نفسه، 1/ 242 و3/ 131 و3/ 169.

(105) المصدر نفسه، 3/ 12. و3/ 543.

(106) ينظر: المصدر نفسه، 1/ 66.

(107) المصدر نفسه، 1/ 138.

(108) المصدر نفسه،1/ 246. الجوذاب: ضرب من الحلوى.

(109) المصدر نفسه، 2/ 267.

(110) المصدر نفسه، 2/ 239. الزيرياج: لحم سمين وحمص مقشور وخل ولوز وفلفل ومطيبات أخرى، والبرمة: قدر من حجارة أي إن هذا الطبيخ يعد في قدر إستها المصنوع من الحجارة.

(111) المصدر نفسه، 1/ 226.

(112) المصدر نفسه، 4/ 265-266.

(113) ينظر: المصدر نفسه، 3/ 117-119.

(114) المصدر نفسه، 3/ 131-136.

(115) المصدر نفسه، 1/ 167. والدوشاب، النبيذ الأسود المصنوع من التمر. وينظر أيضا هجاؤه له 3/ 77.

(116) المصدر نفسه، 2/416-423.

(117) ينظر: المصدر نفسه، 1/ 185و2/ 195 و2/ 216 و2/ 550.

(118) ينظر: المصدر نفسه، 2/ 328 و2/ 472 و2/ 608.

(119) ينظر: المصدر نفسه، 1/ 137 و2/ 212 و4/ 416.

(120) يتيمة الدهر، 3/ 40.

(121) ينظر: صورة الآخر في التراث العربي، د. ماجدة حمود، 15، 21.

(122) ديوانه،1/ 90.

CONFLICT OF INTERESTS
There are no conflicts of interest

المصادر والمراجع

1. أخبار العلماء بأخبار الحكماء، لأبي الحسن علي بن القاضي الأشرف يوسف القفطي (ت646هـ)، عني بتصحيحه: السيد محمد أمين الخانجي الكتبي، مطبعة الساعدة/ مصر، 1326ه.
2. الإشارات الإلهية، لأبي حيان التوحيدي، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات/ الكويت، ط1، 1981.
3. الإمتاع والمؤانسة، لأبي حيان التوحيدي، صححه وضبطه وشرح غريبه: أحمد أمين، وأحمد الزين، منشورات دار ومكتبة الحياة، بيروت-لبنان.
4. البرهان في وجوه البيان، لأبي الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، (ت 335هـ)، تقديم وتحقيق: د. حنفي محمد شرف، مطبعة الرسالة، د. ت.
5. درة التاج من شعر ابن الحجاج (ت 291هـ) تحقيق: د. علي جواد الطاهر، منشورات الجمل/ المانيا- بغداد، 2009.
6. ديوان ابن الحجاج، أبي عبد الله الحسين بن أحمد، (ت391هـ)، جمعه وقدم له وعلق عليه: سعيد الغانمي، منشورات الجمل، بيروت- بغداد، 2017.

7. شذرات الذهب، لأبي العماد الحنبلي، (ت 1089هـ)، أشرف على تحقيقه وخرّج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، حققه وعلق عليه: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير للطباعة والنشر، دمشق- بيروت، ط1، 1989.
8. شرح مقامات الحريري، لأبي العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي (ت 619هـ)، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية/ صيدا- بيروت، 1998.
9. الصداقة والصديق، لأبي حيان التوحيدي، دراسة وتحقيق: الشربيني شريدة، دار الحديث/ القاهرة، 2007.
10. العبر في خبر من غبر، للحافظ الذهبي (ت748هـ)، تحقيق: محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.
11. فن الشعر، أرسطوطاليس، ترجمه عن اليونانية وشرحه وحقق نصوصه: عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية/ القاهرة، 1953.
12. الفهرست، لأبي الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحق المعروف بالوراق (ت438هـ)، تحقيق: رضا تجدد، مكتبة الأسدي/ طهران، 1971.
13. فوات الوفيات، والذيل عليها، محمد بن شاكر الكتبي (ت764هـ)، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر/ بيروت.
14. كتاب العبارة، ارسطوطاليس، نقل: اسحق بن حنين، تحقيق وتقديم: عبد الرحمن بدوي، ضمن كتاب منطق أرسطو، الكويت، وكالة المطبوعات، بيروت، دار القلم،1980.
15. لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور (ت711هـ)، دار المعارف/ مصر.
16. محاورة كراتيليوس في فلسفة اللغة، أفلاطون، ترجمة: د. عزمي طه السيد أحمد، منشورات وزارة الثقافة، المملكة الأردنية الهاشمية، عمان، ط1، 1995.
17. مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، أبي محمد عبد الله بن اسعد بن علي اليافعي اليمني المكي،(768هـ)، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
18. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، لأبي فضل الله العمري، (ت 749هـ)، تحقيق: كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.
19. معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ياقوت الحموي الرومي (ت626هـ)، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي/ بيروت- لبنان، ط1، 1993.
20. المقابسات، لأبي حيان التوحيدي، قدم له وراجعه وضبطه: د. عبد الأمير الأعسم، دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع/ دمشق، ط1، 2011.
21. المنتخل في تراجم شعراء المنتحل، لأبي منصور الثعالبي، لشارح المنتحل ومصحح روايته: أحمد أبو علي، طبع بالمطبعة التجارية بالإسكندرية.
22. الموشّى أو الظرف والظرفاء، لأبي الطيب محمد بن اسحق بن يحيى الوشّاء(ت325هـ)، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي/ مصر، ط2، 1953.
23. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ابن تغري بردي الأتابكي، (ت874هـ)، قدم له وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان.

24. نسمة السحر بذكر من تشيع وشعر، ضياء الدين يوسف بن يحيى الحسني اليمني الصنعاني، (ت 1121هـ) تحقيق: كامل سلمان الجبوري، دار المؤرخ العربي، بيروت–لبنان.
25. نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، القاضي أبو علي المحسن بن علي التنوخي (ت384هـ)، تحقيق: عبود الشالجي، دار صادر/ بيروت، ط2، 1995.
26. الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي (ت 764هـ)، تحقيق: أحمد الأرناؤط، تزكي مصطفى، دار إحياء التراث العربي/ بيروت– لبنان، ط1، 2000.
27. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأبي العباس شمس الدين أحمد بن خلكان (ت681هـ)، حققه: د. إحسان عباس، دار صادر/ بيروت.
28. يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، لأبي منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري (ت429هـ) شرح وتحقيق: الدكتور مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية/ بيروت– لبنان، ط1، 2000.
29. الإبداع والسلطة في شعر العصر العباسي الأول، د. عيسى المصري، مكتبة الرائد العلمية للنشر/ الأردن، ط1، 2007.
30. أدب الكدية في العصر العباسي، دراسة في أدب الشحاذين والمتسولين، أحمد الحسين، الهياة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة/ دمشق، ط1، 2011.
31. أدب المهمشين في العصر العباسي من القرن الثاني حتى القرن الرابع الهجري، دراسة في ضوء النقد الثقافي، د. نورس إبراهيم عبد الهادي، الدار المنهجية للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2019.
32. الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، خير الدين الزركلي (ت 1396ه–1976م)، دار العلم للملايين/ بيروت، ط5، 2002.
33. الإنسان الكامل في الإسلام، د. عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، ط2، 1976.
34. الإنسان الكامل في الفكر الصوفي، عرض ونقد، اعداد: د. لطف الله بن عبد العظيم خوجه، دار الفضيلة، الرياض، ط1، 2009.
35. الإنسان والجدار، بدر عبد الملك، دار المدى للثقافة والنشر/ دمشق، 1997.
36. بيان الحد بين الهزل والجد، دراسة في أدب النكتة، بوعلي ياسين، دار المدى، ط2، 2013.
37. الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، د. آدم متز، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، المركز القومي للترجمة، 2008.
38. السرد العربي، مفاهيم وتجليات، سعيد يقطين، منشورات الاختلاف/ الجزائر، ط1، 2012.
39. سيميائية الإنسان الناقص في النثر العربي القديم، د. نسرين السنوسي، الدار التونسية للكتاب/ تونس، ط1، 2017.
40. الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي، د. علي جواد الطاهر، مطبعة المعارف/ بغداد، 1958.
41. صورة الآخر في التراث العربي، د. ماجدة حمود، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010.
42. الفتنة والآخر، أنساق الغيرية في السرد العربي، شرف الدين ماجدولين، منشورات الاختلاف/ الجزائر، ط1، 2012.
43. فن الشعر، د. إحسان عباس، دار الشروق للنشر والتوزيع/ عمان، ط2، 2011.

44. معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى سنة 2002 م، كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.
45. المقامات، السرد العربي والأنساق الثقافية، عبد الفتاح كيليطو، ترجمة: عبد الكريم الشرقاوي، دار توبقال/ الدار البيضاء، ط1، 2007.
46. موسوعة أدب المحتالين، د. عبد الهادي حرب، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر/ دمشق، 2008.
47. نقد ثقافة التخلف، د. جابر عصفور، دار الشروق/ مصر، 2009-2010.
48. جماليات البذاءة في الحياة اليومية، د. قيس كاظم الجنابي، مجلة الثقافة الشعبية، دار الشؤون الثقافية العامة/ بغداد، العدد الثالث/ السنة الثانية والأربعون/ 2011.